# خواطر في الإسلام

بقلم

## عطا حسني بك

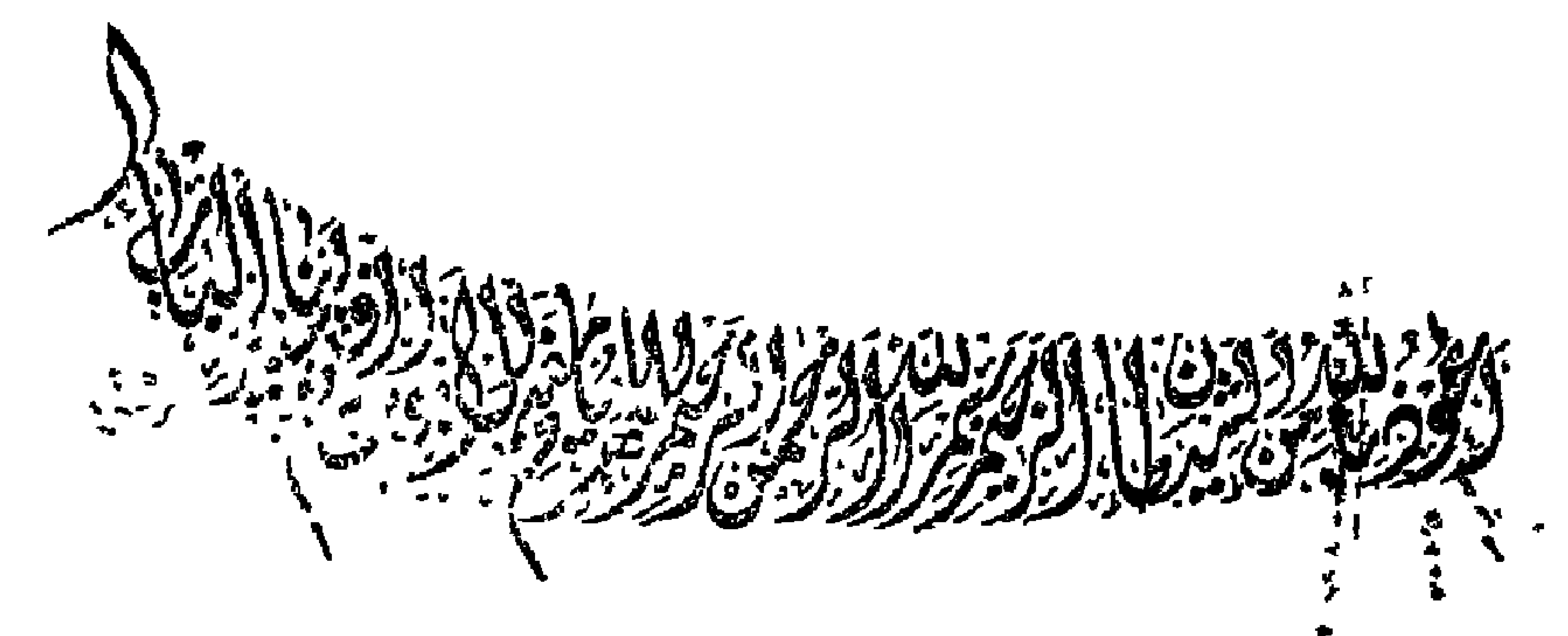


عضو في الجمعيتين العلمية والجغرافية في باريس

الجزء الاول

طبعة ثانية



الحمد لله رب الكائنات الذي فرق الناس الى ممالك وامارات وقبائل وجماعات والصلاة والسلام على النبي الامين . الهادي بآيات الله البينات والمجلي بانواره القدسية ما تلبد على عقول البشر من الظلمات . ورضى الله على اصحابه الكرام ، وانصاره الفخام ، ذوي الكرامات .

وبعد فان المسلم الشفوق على امته البارّ بدينه الناظر الى اخوانه الموحدين أهل اليقين وما هم عليه من الجهل والتأخر وضياع الجاه والسلطان لا يسعه الا أن يستعظم الخطب ويستكبر المصاب وأن هو الارزء المسلمين والاسلام ونكبة أهل التوحيد والقرآن فيعود وهو بين اليأس والرجاء واسع الامال كثير الاشجان ويثني وهو منقبض الصدر في اضطراب وبحران ينظر الى اوربا فيرى القوم هنالك وقد استخدموا العناصر واتخذوا من الهواء والماء والبخار المساعد والمناصر وما زالوا يتقدمون في مضمار المدنية حتى قبضوا على نواصي الامم وما فتئوا يعملون على الكسب والربح حتى استنزفوا ثروة الشعوب واصبحت كل امة في المعمور محسوبة على اوربا وخادمة لها تشتغل لاجلها وتجني ما تجني من عرق جبينها لتقدمه لها

بينما ينظر المسلم الى الاوربيين وما توصلوا اليـه من مجد وعلم وبراعة ويراعة يقلب صفحات التاريخ تاريخ آبائه واجداده فيرى ان لامجد الا مجـد الاسلام ولا فخار الا فخار المسلمين ولا فضل الا فضلهم ولا رقي الا رقيهم ولا عمران الا عمرانهم ولا مدنية الا مدنيتهم فلا يسعه الا ان ينشد

اؤلئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنـا ياجرير المجامع

كيف لا وهو مازال يتدرج في تلاوة تاريخ الاسلام حتى ينتهي الى الادوار الاخيرة التي دالت بها دول المسلمين وضاع اوكاد ما كان لهم من مجد وسلطان ومدنية وعمران واصبحوا بالاخير تابعين بعد ان كانوا متبوعين وسامعين بعد ان كانوا مسموعي الـكلمة على ماتراهم الآن في الهند والسند وجاوه والعراق وتونس ومصر والشام وكل ربوع الاسلام

ولولا الاتكال على المستقبل ( والمستقبل لله ) والاعتماد على وعـد الله سبحانه وتعالى وهو اصدق الواعدين اذ جاء في كتابه العزيز « انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » لولا الاتكال على وعده جلّ وعلا لتسرب اليأس الى نفوسنا ولـكن الدم الذي يجري في عروقنا وكرياته قـد تشبعت من المبدأ الاسلامي الشريف يابى علينا ان نستسلم لعوامل الاقدار مادام بين ايدينا الـكتاب الشريف العزيز الذي ضمّ بين دفتيه اسرار الرقي والعمران والادب والعرفان وعلوم الاكوان واشترع لنا افضل الاديان .

نعم ان تاريخ المسلمين هو تاريخ جليل خطير وفيه ذكر عاطر لـكل عمل عظيم وفتح كبير وما قصص وسير اسلافنا الصالحين الا وقائع حروب ومغازي لاؤلئك الفاتحين وذكرى لما عملوه في سبيل راحة ورفاه وتقـدم وارتقاء اهل هذا الدين ممن امنوا المخاوف ومدنوا المجاهل ومصروا الامصار

وعمروا البلدان وكانوا عليهم رحمة الله ساسة الاكوان ونباريس الهدى واقطاب العلوم واساتذة المعارف وائمة الاداب

وكل فطن حكيم واديب غيور ولبيب فهيم وكاتب نجيب يطالع بتمعن مخلفات وآثار الاجداد والاسلاف واخبار من انطوى من اهل الاسلام ودعائم المدنية والعمران ويقابل بين حالة المؤمنين في صدر الاسلام وما كانوا فيه من وجاهة ونبالة ومجد وسلطان وسطوة ودولة وعز وفخار وبين ماهم فيه الآن من شقاق وانقسام وغباوة وجهل وسقوط وفقر حتى اصبحوا محكومين بعد ان كانوا حاكمين ومغلوبين على امرهم بعد ان كانوا غالبين يرى من البون العظيم بين اليوم وامس ان يتمنى لو يفتدي هذه الامة بماله وبنفسه ويجود بكل عزيز لديه في سبيل انهاضها من كبوتها واعادة ذلك المجد اليها وليس على الله من امر عسير سبحانه على كل شيء قدير

لم يبق في الوجود من يجهل حقيقة حالة المسلمين والخطر المحدق بهم من تدفق تيار الاوربيين فاننا نرى مع الاسف العظيم في اكثر ربوع الاسلام النفوذ الاوربي مالئاً مقامات بعض الحكومات الاسلامية وسيبة الاوربيين مالئة افئدة اكثر هؤلاء المسلمين كما نرى متاجر اوروبا تلتهم اتعابهم ومصنوعاتها تسلب اموالهم كأنّ هؤلاء المستكينين الى اهل اوروبا عبيد لهم مسخرون او كأنّ هؤلاء الاجانب خلقوا اسياداً لهؤلاء المسلمين ولما كانت العبودية مما تأباه نفوس الاحرار الاعزاء فان قبول المسلمين لمثل هذا الذلّ مما لا يتناسب مع تاريخهم المجيد المملوء بذكرى ما كانوا فيه من السموّ والعلاء

هذه نتيجة كثير مما جال بخاطري قبل ان اقدم على وضع هذه الخطاطة التي اقدمها اليوم لاخواني راجياً ان يكونوا فيها العبرة وذكرى

تنفع الذكرى والله المسؤول ان يسدد خطواتي في سبيل الخير العام وان يوفقني الى العمل بما فيه مصلحة الاسلام

وفي الختام اضرع الى الله تعالى سبحانه مجيب الدعوات وارفع اليه عزّ وجل اكف الطلب بكل اخبات واقول اللهمّ صن بيمينك القدسية سيدنا ومولانا الخليفة الاعظم امير المؤمنين وحامي حمى الحرمين المحترمين السلطان ابن السلطان السلطان الغازي ( عبد الحميد ) خان وادم بظله الظليل سموتابعه الجليل مولانا خديوي مصر ( عباس حلمي الثاني ) المعظم وايد بفضلك عموم ملوك وامراء المسلمين واهدهم الى الصراط المستقيم والهمهم من لدنك نعمة الاتحاد والوفاق لحماية دينك القويم ووفقنا جميعاً الى ما فيه الخير العميم بجاه رسولك الامين وجميع انبيائك واصفيائك الصالحين امين

مصر القاهرة في غرة محرم الحرام سنة ١٣٢٥ عطا حسني



## توطئة

### في سبب وضع هذا الكتاب

كان القرن التاسع عشر الميلادي ممتازاً على ماتقدمه من القرون بما حدث فيه من الاختراعات التي قربت الابعاد وسهلت المواصلات بين البلاد فاغنت العباد وكان ذلك بفضل العلم وقد أزهر غرسه ونما فرعه وأثمر زهره بعد ذلك الدرس الطويل الذي توارثه الخلف عن السلف من بعيد الايام وكان الذين نضج ثمر العلم على أيديهم هم جماعة الاوربيين الذين كانوا آخر من عني بالمعارف والمدنية على حد قوله تعالى «وتلك الايام نداولها بين الناس»

ولما بلغ الاوربيون في القرن المشار اليه هذا المقام العالي في عالمي المدنية والعلم وسخروا لاعمالهم البخار فالكهرباء نمت مصانعهم وتكاثرت مزارعهم وعظمت متاجرهم فضاقت بهم بلادهم بما رحبت ومالوا الى التوسع في الاستملاك رغبة في فتح أسواق العالم لمشترى مايصنعون وما يزرعون ورأوا بعد أعمال الفكر والروية ان الحروب والمغازي مما يضيع الثروات ويذهب بالعمران ويشوه وجه المدنية وقد لايتفق لهم الثبات في وجه الذين سيهاجمونهم وهم أهل الشرق لما اتصف به الشرقي من البسالة والاقدام والاستماتة في مواقف الطعان «والغالب يكون دائماً شراً من المغلوب» رأوا بعد هذا ان يخترعوا والحاجة ام الاختراع وسيلة جديدة للفتح وذلك بوضعهم مبدأ «الباب المفتوح» يريدون به حرية التجارة وقد توصلوا في هذا المبدأ الى الاستعمار الذي مدوا فيه رواق سلطتهم على اكثر مافي الشرق من الاقطار والامصار

اما مبدأ «الباب المفتوح» الذي نحن بصدده فهو عبارة عن الزام الدول الشرقية جمعاء بفتح اسواقها للاجانب واعطائهم حرية التعامل مع الاهلين وجعل الاتاوة الكمركية مقررة لاتجوز زيادتها في الوقت الذي فيه تصادر اوروبا الواردات الاجنبية بما تضرب عليها من الضرائب الكمركية

وقد الزمت اوروبا الشرق بهذا المبدأ الزاماً وحملتها على قبوله قهراً مهددة اياها بخطر الحرب ان هي ابت ذلك وكانت في الوقت نفسه تحمي التجار من رعاياها في الشرق ظالمين كانوا أو مظلومين وتولد عن ذلك مسألة الامتيازات في بعض الممالك الكبرى ومسألة الاستعمار في غيرها

اما الاستعمار فقد تولد عن مبدأ الباب المفتوح حيث كانت الدول الاوربية تعضد تجارها في اسيا وافريقيا وتؤيدهم ولا تزال تزداد في مداخلاتها بشؤونهم وشؤون الرعايا الوطنيين الى ان تلجىء احدى هذه الحكومات والاكثر دهاء الحكومة المحلية الى القبول بحماية الدولة القاهرة أو تحاربها والامارات التي حاربت اوروبا كلها ضاع استقلالها بتاتاً كالجزائر ومدغسكر مثلا والدول التي قبلت الحماية بقيت حكوماتها الوطنية اسما واستلمت الدول الحامية زمام الاحكام فعلاً كما جرى في تونس ومصر ويكاد يجري في مراكش في هذا العصر وقاها الله

اما الهند ففيها الامارات والممالك وبعضها تسلطت عليها الدولة الانكليزية وملكتها ملكا وبعضها مازال خاضعاً للانكليز على شكل الحماية كامارة حيدر اباد الدكن وخلافها من الامارات الهندية

ولم يسلم من شرّ اوروبا الا ثلاث ممالك اثنتان منهما اسلاميتان وهما مملكة فارس ومملكة الافغان والثالثة نصرانية وهي امبراطورية الحبشان الا

ان هذه الثلاث ممالك ولو كانت قد نجت من تملك الاوربيين والوقوع في سيطرة حمايتهم الا انها مازالتْ داخلة في مناطق نفوذهم ومهددة بهم الا مملكة فارس التي نهضت في الزمن الاخير هذه النهضة وادخلت الشورى الي حكومتها ولا يبعد ان تصبح مع دولتنا العلية العثمانية عضد الاسلام بعد قليل وناشرة فضل القرآن في العالمين ولا عجب في ذلك فقد نصر الفرس آل الرسول في صدر الاسلام وكانوا عضد وسند الخلفاء العباسيين في دورهم المجيد على ماهو ظاهر في صفحات التاريخ ومعروف من كل انسان

على ان الاوربيين دخلوا ربوع الشرقيين في اسيا وافريقيا بجشع وعظمة حاسبين انهم بين قوم ادنى منهم شرفاً واقل ادراكاً واوطأ مقاماً فساموهم من الذلّ والهوان اضعاف ماساموهم من الخسران وارغموهم على اترك عوائدهم المألوفة وادخلوا عليهم من العوائد المنافية لديهم ايضا ماحملهم ان ينفروا من صحبتهم ويكرهوا معاشرتهم ويأبوا تسلطهم الا اذا كانوا مكرهين

ولما كان اكثر سكان اسيا وافريقيا المتمدنين من المسلمين وكانت التجارة اكثر نمواً بين المتمدنين منها بين المتوحشين كان التصاق الاوربيين بأهل الاسلام اكثر من التصاقهم بغيرهم (الا في الهند) وفي الوقت نفسه اذ رأى المسلمون انهم قد غلبوا على امرهم تنبهوا من غفلتهم وذكروا ماضي تاريخهم ولا سيما بعد مارأوا اليابانيين ونهضتهم الحديثة وتقدمهم العجيب الغريب في مدة لا تزيد على الخمس والثلاثين عاماً وقام كتابهم يكتبون بوجوب تعميم العلم واحياء الشعور الاسلامي في أفئدة المسلمين بحيث يشعر كل واحد منهم بما يصيب أخيه من فرح وألم ولو كان بعيداً عنه جنسية وتابعية ولغة «والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً »

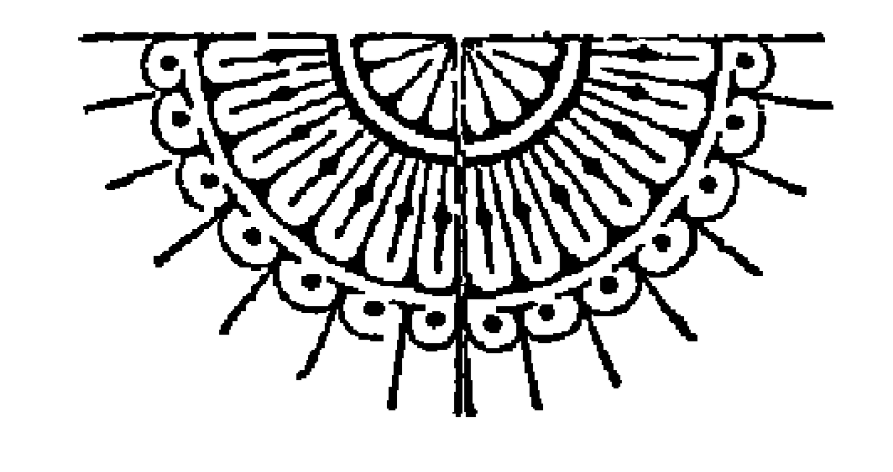
ولما ظهرت آثار تنبه المسلمين للعيان وسمع بها الخاص والعام قام الاوربيون يبحثون في طبائع المسلمين ودينهم وعوائدهم فخلطوا ماشاؤا عن جهل بحقيقة دينهم الحنيف وسابق تاريخهم المنيف وآيات قرآنهم الشريف وحكم أكابر سواسهم وكثيرون من علمائهم « ان لامدنية في القرآن وان الاسلام مؤدي الى الهمجية وان هذا الدين (استغفر الله) اذا ساد ضعضع كل مافي الكون من رقي ومدنية وعمران وعلم وفضل » الى آخر ماتشدقوا به ورووه والصقوه بالمسلمين والاسلام

وكادت هذه التهم تلصق بهذه الامة وهذا الدين وتتقرر كحقائق راهنة لاتقبل جدلا باذهان العالمين فرأيت ان اقدس خدمة يمكن ان يقوم بها المسلم لقومه أولا ولاوربا ثانياً ان نظهر بالبرهان الاشهب حقائق هذا الدين الحنيف وماضي مدنية الاسلام ونظهر جلياً لكل متمعن وحكيم فيما نرويه ان القرآن الشريف كان ولم يزل أكبر عامل على المدنية الحقيقية المفيدة للعالمين والمؤدية الى سعادة الدارين . وان ماظهر على أهل القرآن من التقهقر والسقوط لم يكن من اصل دينهم معاذ الله بل بعوامل سياسية عارضة عرضت لهم وان المسلمين اذا طبقوا أحوالهم الاجتماعية واعمالهم على مباديء دينهم الصحيحة اصبحوا كما كانوا زعماء الامم وخير قدوة للشعوب بالمدنية والارتقاء

وتقرير هذه الحقائق كما انها تفيد المسلمين وتزيدهم تمسكا في دينهم وعملاً باوامر نبيهم صلى الله عليه وسلم فانها تفيد الاوربيين الذين اذا عرفوا حقيقة الدين الاسلامي وما انطوى عليه من المباديء العمرانية الصحيحة المؤدية الى السعادة في الحال والمآل والارتقاء في الاقوال والافعال انقلبوا الى تعظيم المسلمين والاعتراف بفضل دينهم واحسنوا الظن بكتابهم ومباديهم ويكون

ذلك ضماناً للمدنية والعمران

والقصارى اننا وضعنا هذا الكتاب لتنبيه المسلمين الى مستقبلهم وتنشيطهم على العمل في حاضرهم وتقوية عزائمهم بذكر ماضيهم وبعد ذلك لنبين لاهل اوروبا الذين يحتقروننا جهلا بنا ويسيئون الظن بديننا ان الاسلام هو دين الفطرة وهو وحده الدين الملائم للمدنية والعمران في كل عصر ومصر وزمان ومكان وانهم اذا ارادوا احسن دروس الارتقاء فلن يجدوها ولا يجدونها الا في القرآن وبالاخير نسأل الله جل وعلا ان يلهمنا سداد القول ورشاد الرأي وان يوفقنا لخدمة الحق والحق حبيب الله والسلام



# الفصل الأوّل

## في ما هي المدنية

اول ما يجب ان نبحث عنه في كتابنا هذا هو تعريف المدنية لغة واصطلاحاً حتى نفرق بين المدنية الحقيقية وبين المدنية الكاذبة تحاشياً من المغالطات التي يغالطنا بها الاوربيون

فالمدنية مشتقة من التمدن والتمدن لغة هو التخلق باخلاق اهل المدن اي الحضر سكان الامصار واصطلاحاً هو عبارة عن انتقال الناس من الخشونة والهمجية والجهل الى حالة الظرف والانس والمعرفة

وليس للتمدن او المدنية رابط معروف وضابط موصوف يمكن للانسان ان يبينه ويجعله قاعدة لبحثه فيدخل فيه الامم التي توفرت في امصارها كذا وكذا ويخرج منه الامم التي قصرت في كذا وكذا كما ان لا سبيل الى التمييز بين مدنية واخرى لان مدنية كل قوم تتبع اخلاقهم وعوائدهم واديانهم وحاجياتهم وكمالياتهم والوسط الذي هم عائشون فيه والبقعة التي هم يسكنونها

ولقد جعل الحكماء والعقلاء اساساً لمدنية كل امة النظر الى الابنية لانها عنوان درجة رقي الجماعات الذين يسكنونها والى المخلفات العلمية والادبية والفلسفية لانها مجلى حقيقة ما كانوا عليه من المدارك والى الثروة التي كانوا يتنعمون بها لانها تدل على اقتدارهم في الصناعة والزراعة والتجارة وبالاخير الى شرائعها لان الشرائع اعظم دليل على ما كان في تلك الامة من الاخلاق الراقية وعدمها ومن المساواة او التفاوت في المقامات ومن العدل او الظلم ومن الآداب الحسنة او الاخلاق السيئة الخ

فاذا لاحظنا هذه النظريات الضرورية للبحث في موضوع المدنية وعرفنا مايراد منها لغة واصطلاحا يتيسر لنا ان نستخلص قاعدة نجعلها أساساً للبحث وهي

ان المدنية على نوعين مدنية حقيقية ومدنية مجازية او كاذبة فالمدنية الحقيقية هي في وجود الشرائع العادلة والعلوم العالية والآداب الراقية والثروة الزاهية والمدن العامرة . والمدنية المجازية هي في شكل الاجتماعات والازياء والمآكل والعوائد الى غير ذلك مما يلاحظ فيه ظروف الزمان والمكان والوسط أي البئة

ولتفصيل هذا الاجمال نقول ان معرفة مدنية كل امة يكون في البحث عن شرائعها وآدابها ومعارفها وثروتها ( التي لا تنمو الا عن اتساع نطاق الزراعة والصناعة والتجارة ) وعظمة الامصار التي تسكنها . اما الآداب الاجتماعية والمعائش العائلية والملابس والمآكل فهذا عرض للمدنية يختلف باختلاف لغة الامة ودينها وآدابها وعوائدها والوسط الذي تعيش فيه والبقعة التي تسكنها الى غير ذلك

وبعد فاذا تقرر لنا هذا لاسبيل لقول من يقول ان سكان اوروبا في العصر الحاضر ارقى من سكان آسيا وافريقيا لان الاوروبيين يتردون ملابسهم المعروفة ( الموضه ) ويتناولون الاطعمة على موائد مخصوصة مرتبة على شكل كذا ويعاشر رجالهم النساء بلا حياء الى غير ذلك من العوائد العارضة واذا جاز مثل هذا القول كان للشرقيين ان يدعوا انهم اقرب للمدنية من الاوربيين لان عوائدهم اشرف من عوائد اهل الغرب في مجتمعاتهم وملابسهم واقرب للتقوى والفضيلة ولو جعلت العقل حكماً بين دعوى الشرقيين والغربيين

في هذه العوائد والاخلاق لكان مع اهل الشرق وحكم لمصلحتهم بلا جدال

ولكن اذا اراد عاقل ان يحكم للاوربيين بالميزة على الشرقيين من اهالي آسيا وافريقيا فذلك لانهم ارقى عقلاً وأكثر علماً ومعرفة وابرع صناعة واكثر استعداداً للكسب واعظم شأناً في السطوة بفضل تعاضدهم وتكاتفهم تحت لواء المدنية الذي اهتدوا اليه في القرن السابع عشر المسيحي ذلك اللواء الذي نشره الاسلام منذ ثلاثة عشر قرناً في العالمين وهو لواء العلم

ولقد اختلف العلماء في مباحثهم عن المدنية اختلافاً واضحاً فالعلماء الدينيون قالوا ان المدنية أثر من آثار الدين وقال غيرهم بل ان الدين يتبع غالباً مدنية الامة التي يظهر فيها ويتكيف حسب عوائدها وما زال الامر كذلك فيكون الدين من جملة العوامل على تأييد المدنية او ترقيها ولكنه لم يكن موجدها. ولكل من اصحاب هذين الرأيين شروح وبنود لا محلّ لذكرها في هذا الكتاب ولاسيما فان نتيجة الرأيين واحدة وهي ان للدين تأثيراً كبيراً على المدنية

وكذلك اختلف العلماء في نشأة المدنية فزعم العلماء الدينيون ان الله سبحانه وتعالى منذ خلق الانسان اوحى اليه ان يتمدن ووضع له مبدأ حفظ حياته ونموه ولولا ذلك لباد النوع البشري من الوجود لما تعلم من ضعف وجود الانسان وانه لا يبلغ اشده من غير ان يعنى به عناية كبرى كما هو ظاهر ومشاهد وقال غيرهم رداً على هذا الزعم ان الله سبحانه خلق الانسان كما خلق سائر الحيوان في صفاته الحيوانية ووضع في غريزته مبدأ حفظ النوع كما وضع ذلك في غريزة الحيوان والنبات فتناسل وتوالد وعمل على حفظ نوعه بكل ما توصل اليه من ممكن العناية الطبيعية وليس من الضروري ان يموت ابن الجد الاول للبشر لانه ولد في الشتاء وفي ارض باردة فلم يدفئوه ولم يلبسوه

الصوف كما يموت ابن المترفين اليوم لدى اقل عارض يعرض له لان الانسان ابن العادة اما ترى الفلاحين كيف يعيشون؟ وكيف يربون اولادهم؟ وعلى هذا فيكون الانسان في بدء نشأته كالحيوان سواء بسواء وقد وجد متوحشاً فتمدن وتمدر وتلطفت اخلاقه بما خلق الله فيه من القوى العاقلة ومع الايام

هذا ما يقوله اشهر العلماء ونحن لا ننكر ان الله سبحانه منذ خلق الانسان لم يتركه من جميل عنايته جلّ وعلا لانه اشرف مخلوقاته غير انه كان ذا معيشة قروية وحشية وحالة بسيطة كما سترى

---

## الفصل الثاني

### في نشأة البشر وهمجيتهم

ان الذين درسوا طبائع البشر وتعقبوا اخلاقهم ووقفوا على حقائقهم اجمعوا على ان الانسان مفطور على الشرّ بطبيعته ميال للخير بعقله فهو مفترس يتلذذ بالانتقام ويميل الى ارتكاب المساوي والموبقات اتباعاً لنفسه والنفس امارة بالسوء ولكنه يخاف القصص اما من الحكام او من عدل الخالق الديان او من ان يصبح بين ابناء جنسه موضع الاحتقار والامتهان على ما يوضحه له عقله ومع وجود هذه الموانع الثلاث الانسان عن ارتكابه المساوي والمحرمات كان ولم يزل على اخلاقه الفطرية بدليل هذه السجون الممتلئة من القتلة والسارقين والمختلسين وغيرهم من المجرمين على ما نسمع ونرى خلافاً للحيوان الاعجم الذي لا يعتدي على ابناء نوعه على الاطلاق فنرى اسراب الطيور واسراب الذئاب واسراب الغزلان وكلها متعاشرة متآلفة تسعى في طلب

رزقها وتتساند لردّ اعدائها عنها

فلما خلق الانسان بفطرته همجياً أخذ يسعى لتحصيل قوته مسعى الحيوانات العجم فلم ير اسهل عليه من النبات فجعل يأكله كما جعل يصطاد ما يتمكن اصطياده من الحيوانات الضعيفة ويأكل لحمها نيئاً وكان جسم الانسان على ما يقول العلماء الطبيعيون في الاصل مكسواً بالشعر بجملته فلم يكن محتاجاً الى كساء يقيه الحرّ والبرد ثم اذ تمدن واكتسى زال منه الشعر لعدم الحاجة اليه ودليلهم على ذلك وجود الشعر في الانسان في كثير من المواضع في جسده وزعموا انه كان ذا ذنب ( ذيل ) ثم زال منه لعدم استعماله أيضاً ويستدلون على ذلك بوجود اثر ذلك الذنب في جسمه حتى الآن

على ان مزاعم هؤلاء العلماء لاشأن لنا بها الآن ولا يعنينا امر اثباتها او نفيها وانما الذي يعنينا هو ان الانسان ما اخترع اللباس ليقيه الحرّ والبرد الا بعد ان شعر بالحاجة اليه والحاجة ام الاختراع

والظاهر ان الانسان بعد ان افترس الحيوان وأكل لحمه اخذ جلده فاكتسى به فكان اول كساء الانسان هو جلد الحيوان وقالت التوراة ان الانسان عند ماشعر بوجوده استحى من نفسه فستر عورته باوراق الاشجار فاذا صحت هذه الرواية يكون الانسان قد اكتسى بورق الاشجار ثم مال الى جلود الحيوان فاستعملها لانه رآها اكثر ملاءمة لحاجته

ولما كان مبدأ حفظ النوع غريزة طبيعية في الانسان والحيوان والنبات والجماد ايضاً على السواء فذكور الانسان الاول واناثه تزاوجوا ونموا هذا النمو واختلف المحققون كثيراً في اقدم عوائد الانسان في الزواج وذهب

اكثرهم الى الاباحة كالحيوان بحيث ان المرأة ما كانت تعرف الرجل الا عند الحاجة اليه وكانت هي تعنى بحضانة اولادها تلك الحضانة التي لابدّ منها للولد وكانت ولم تزل في اطفال الانسان اطول مدة من صغار الحيوان لان اطفال الانسان اضعف مخلوقات الله وجوداً باجماع العلماء وكما هو مشاهد للعيان بغير كثير عناء

ولما رأى الانسان الاول نفسه محتاجاً الى منزل يرد عنه الامطار والزوابع ويقيه لذعات الحر الهائله بتعرضه للشمس في الظهيرة جعل يقيم المنازل والبيوت من اغصان الاشجار ثم رأى ان بيوتاً كهذه لا تقف في وجه الاعصار والزوابع فجعل يحفر الكهوف والمغر في الجبال ويلجأ اليها فكانت منازله يأوي اليها طلباً للراحة

واضطرّ في هذه الحالة الى السلاح ليستعين به للدفاع عن نفسه ولصيد الحيوان لغذائه ولحفر الكهوف والمغر في الجبال لايوائه فجعل يفتش فيما حوله فوجد حجراً صلباً هو حجر الصوان وكان بينما يكسره قطعاً ليتسلح بها يضيء ويعطي ناراً وحدث انه بينما كان يضيء مرة اصابت شراره غصناً يابساً فالتهب فاهتدى بذلك الانسان الى النار فجعل يستخدمها في شيّ اللحوم التي كان يأكلها نيئة وفي تدفئة نفسه ايام البرد

هذه خلاصة مطالعة العلماء في الانسان الاول بعد ان وجد على وجه الارض اما مداركه ومعارفه فلم تكن الا بحالة طبيعية لا يدرك معها غير ما يحتاج اليه من مأكل وملبس ثم أخذت تنمو مداركه بقدر حاجته اليها فيفتق له عقله ابواب الحيلة للصيد والقنص والتغلب على ما كان يراه صعب المنال وبعيد المرمى مما تصبو اليه نفسه ولا يسهل تناوله

ولما كثر نمو الناس اخذوا ينافسون بعضهم بعضاً ويزاحمون بعضهم بعضاً بمطامع كانت غالباً تفضي الى الاعتداء واهراق الدماء وانقسموا افخاذاً وبطوناً ولما كان الانسان ضعيفاً بنفسه قوياً باخوانه نشأت فيه العصبية وصارت كل قبيلة تجاهد في التسطي على غيرها والطمع في اغتصاب ما بين ايدي جيرانها وهكذا تفرق الناس في السياسة وصارت كل قبيلة تنتمي الى رئيس لها او زعيم تأتمر بأوامره وتنتهي بنواهيه وكان الذي يرأس القبيلة يكون على الغالب اقوى رجالها بطشاً واكثرهم جراءة واقداماً فنشأت عن ذلك السيادة والرئاسة في الشعوب والامم فكان الرؤساء فالشيوخ فالامراء فالملوك فالسلاطين الخ .

ومن المعلوم ان اللغة تتبع حالة الامة التي تتكلم بها ومقدار رقيها وتقدمها فالانسان الاول كان ينطق بمقاطع لفظية سمى بها المسميات التي كان يقع عليها نظره او يرى نفسه محتاجاً اليها ثم صار يتوسع بتسمية المسميات بتوسعه في مدنيته ومداركه ثم لما تفرق الناس الى قبائل وشعوب تبلبلت السنتهم وكثرت مسمياتهم للشيء الواحد على قدر ما كانت تصل اليه مداركهم او تستحسنه اذواقهم او تسوقهم الحاجة اليه فكان هذا منشأ اللغات في الشعوب ولا جدال انها كانت ترجع كلها الى لغة واحدة هي التي نطق فيها الانسان الاول في بدء وجوده هو سيدنا آدم عليه السلام.

على ان همجية الانسان اوخشونته زالت رويداً رويداً لان من طبعه الغريزي الالفة والمعاشرة ومن مقتضيات هذه الالفة والمعاشرة الجوار ومن مستلزمات الجوار التحضر لان اذا سهل على الانسان ان يضرب في عرض البلاد وطولها وهو فرد في رأسه يصعب عليه ذلك اذا كان مضطراً الى

مصاحبة أهله وعشرائه ولا سيما كلما كثر ترفه ونمت كمالياته.

وكما ان الانسان كان بطبيعته ميالا للالفة والاجتماع فتحضر كذلك يقتضي ان يكون ميله الى التحضر ناجماً عن حاجته الى تمضيد افراد عصبيته وقبيلته لرد غارات الغائرين عليه من القبائل الاخرى على ان هذا التحضر او الاجتماع لم يكن في المدن بل في البراري والقفار في بيوت كانوا يصطنعونها من الاغصان والاشجار وينتقلون بها من ديار الى ديار طلباً للكلأ والماء كما نرى الآن في القبائل البادية

واول عمل توفق اليه الانسان هو رعي الماشية مما استطاب لحمه او رأى فيه حاجته لحمله وحمل اثقاله وعياله او الاغارة على من يطمع بهم من جيرانه فكان عنده الماعز والخرفان والحمير والبقر والجمال وكانت كل قبيلة تهاجم غيرها فينتصر القوي على الضعيف فيسلب ماشيته وابله ويستعبده ويسبي نساءه ومن ذلك العهد نشأت العبودية والتسري في الانسان. وكانت الحروب والمغازي تنشأ بلا سبب او لاقل الاسباب كأن ترحل قبيلة بمواشيها الى ارض قبيلة اخرى فتقتتل القبيلتان. او ان يعتدي احد ابناء القبيلة على خروف او جمل لقبيلة اخرى او غير ذلك مما كانوا يجعلونه سبباً للغزو والحرب وسفك الدماء والاعتداء. ولما كانت هذه الحالة المضطربة غير منطبقة على مبادىء الانسان الطبيعية رأى ان لابدّ له من اختراع حالة اخرى تكفل له راحته فاخترع التحضر والسكنى في بقاع يبنيها بالحجر الصلب ويعززها بالاسوار والقلاع والحصون ويأمن بها على قدر المستطاع غوائل الغزاة الاعداء وكان هذا اول عهده بالمدنية

# الفصل الثالث

## في أول عهد الانسان بالمدنية

ليس بين ايدينا تاريخ يذكر لنا شيئاً عن نشأة المدنية في عالم الانسان واقدم ما اتصل بنا من تواريخ الامم الغابرة هو التوراة او الاسفار المنسوبة لسيدنا موسى عليه السلام والذي يتصفح التوراة يرَ ان آثار العمران كانت زاهية زاهرة الى ما وراء التاريخ الذي حددته التوراة في ممالك بابل واشور ومصر وفينيقيا وغيرها وتثبت ذلك باجلى بيان الآثار القديمة التي وجدت في اطلال هذه الممالك لهذا العهد فيكون الشرقيون منذ القدم هم واضعو اساسات المدنية وموجدوها من العدم وهم الذين قاموا بها كل هذه القرون الطويلة باجماع الباحثين من رجال العلم والدين

وكما وجدت المدنية في الشرق هكذا وجد الدين في الشرق لان الدين وجد مع الانسان وفي طبيعته وفطرته ثم نمت الشعائر الدينية بنمو الانسان في عالم المدنية عملاً بسنة الارتقاء واراد الله سبحانه ان يحفظ لهذه البقعة مجدها ويجعله مصوناً الى الابد فارسل رسله وانبياءه عليهم السلام من الشرقيين وفي الشرق وهو امتياز من الله سبحانه وتعالى لاهل الشرق ونسأله ان يوفق الشرقيين للمحافظة عليه وصيانته

ظهر الانسان في الشرق وظهر الوحي في الشرق وظهر التمدن في الشرق ومن كان يدري ان الشرق على عراقته في المجد والمدنية والعلم والرقي سيسقط ومن كان يدري ان هذا الشرق ذا التاريخ المجيد سوف يصبح مضيعاً لسابق سلطانه وقد تقلصت ظلال نفوذه وسطوته واصبح باهله الامجاد عيالاً على

الغرب ذلك لم يكن بحسبان الحاسبين من المشارقة ولم يطمع به المغاربة ولكن كان ما كان بقضاء الله وقدره وحكمة يعرفها علام الغيوب سبحانه مبدل الاحوال

هو الجدّ حتى تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

والذي نراه في ثنايا التاريخ ان الامم المتمدنة المتحضرة في تلك الاجيال البعيدة كانت على جانب عظيم من التمدن والرقي يدلك على ذلك ما ابقته من شرائعها ونظاماتها والشرائع والنظامات هي الشاهد العدل على الحالة الاجتماعية التي سنت الشرائع لصيانتها

فالاثريون وجدوا في آثار اشور وبابل ومصر شرائع عادلة جداً وقوانين محكمة السبك تضم بين دفتيها العدل والرحمة ووجدوا شبهاً كلياً بينها وبين الشريعة المنسوبة لسيدنا موسى عليه السلام في التوراة مع ان عهد هذه الممالك المتمدنة اقدم بكثير من عهد ظهور سيدنا موسى في مصر ونشأته في بيت فرعون اذ كان ربيباله على ما هو مشهور ومعلوم

ثم انه لبون شاسع جداً بين شرائع هاتيك الامم العريقة في الحضارة وبين شرائعنا اليوم بقدر البون الشاسع بين مداركنا ومداركهم واختباراتنا واختباراتهم على ان ذلك لا ينفي قدر الفضل الذي كان لهم والمدنية التي بلغوها لان المقارنة والمقابلة لا تكون صحيحة الا اذا قارنت بين شيئين أو شخصين استوت لديهما الظروف الزمنية والمكانية فالذي يطلب من الحاكم اليوم وهو يحكم في باريس مثلا لا يطلب من الحاكم الذي كان يحكم في منف منذ آلاف من السنين لان الرعية اليوم في اوروبا تهذبت وارتقت وصارت تعرف الذي لها والذي عليها بينما كانت الناس في مصر في تلك الاجيال العريقة

في القدم يحسبون انفسهم عبيداً للشرفاء والكهنة والفراعنة وهكذا يطلب من الحاكم وهو يحكم في لوندره اليوم ما لا يطلب من الحاكم الذي كان يحكم في الامس في نينوى

وقد عجز المؤرخون عن تحقيق مسألة تدين هذه الامم ومنشأ اديانها ولم يقرّ لهم رأي يعول عليه. اما نحن اهل الكتاب فلنا ان نعتقد بان الله سبحانه اذ خلق الانسان الاول التى في غريزته عبادته فاصبح عابداً لخالقه وقد توارث ابناؤه واحفاده هذه العبادة الالهية حتى اذا ما ابتعدوا في التاريخ عن منشأهم وكثرت اكاذيب الرواة فسد اعتقادهم بالله على قدر فسادمداركهم فاصبحوا يعبدون ما ظهر لاعينهم كالشمس والقمر والكواكب والنجوم والحيوانات ونحتوا الاصنام والانصاب والتماثيل وكانوا يعبدونها تزلفاً الى الله فنشأت عن ذلك الوثنية في العالم وابتعدبها الانسان عن عبادة خالقه الواحد الاحد فرأى الله سبحانه ان لا يدع الناس وهم أشرف مخلوقاته في دركات الجهل والغباوة فارسل انبياءه ورسله الصلحاء هدى للعالمين عليهم الصلاة والسلام

ولقد تأسست مدنية تلك الامم الوثنية على الدين أو نشأت مدنيتهم من الدين فكان كهنة الاصنام وسدنتها هم الذين يسنون شرائع البلاد ويعتنون بالعلم والفلسفة ويتوسعون فيهما على قدر ما تصل اليه طاقتهم وبما يلائم البيئة التي كانوا فيها وكان اكثر عنايتهم بالطب وكانوا يعتنون في هذا الفن على الخصوص لانه مورد عذب للمال وفيه السيطرة على القلوب لان احترام الانسان لمن يشفيه من امراضه واسقامه والآمه هو احترام طبيعي لا شك فيه

وكان هؤلاء الكهنة يكثرون البحث في علم الهيأة وحركات الكواكب

والنجوم فضبطوا الاوقات ضبطاً صحيحاً على قدر الامكان وكان سرّ عنايتهم في الافلاك وتحديد سيرها والانباء عما سيكون من تقلبات الانواء فيها هو عن رغبة منهم في ايهام الناس بمقدرتهم الخارقة الطبيعة توصلا للسيطرة على افكارهم وعقولهم

ولهذا جعلوا هذه العلوم والفنون سرّاً من اسرارهم ما كانوا يعطونه الا لمن انضمّ اليهم واصبح منهم وفيهم وكانوا يفتكون بكل من باح بسرّ من اسرار هذه العلوم فتكا ذريعاً بغير شفقة ولا حنان حرصاً على مصالحهم

اما الانبياء الذين افتقد الله الناس بهم فكثيرون وسيدنا آدم عليه السلام كان عليه روح الله ونبوته وهكذا سيدنا شيث وغيرهما عليهم السلام

ثم جاء سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام وكان في بادية سوريا او مابين النهرين وهو الجدّ الاعلى لنبينا صلى الله عليه وسلم وجدّ اسباط اسرائيل الاثني عشر وهكذا ظهر بعده كثير من الانبياء عليهم السلام

ثم ظهر سيدنا موسى عليه السلام في مصر وكان ربيب بيت فرعون وتربى تربية الملوك ووقف على اسرار الكهنة المصريين وعلومهم وآدابهم واصطفاه الله سبحانه وتعالى ليكون هاديا لقومه ومنجياً لهم من ذلّ عبودية فرعون فهرب بهم من مصر واقام بهم بين مصر وسوريا في التيه مدة اربعين عاماً على التوالي وذلك لانه رأى ان قد تأصل في صدورهم الذلّ والعبودية فلا يقوون على فتح البلاد واحتلالها فصبر عليهم كل هذه السنين حتى شاخ شبانهم واكتهل فتيانهم وشبّ نشئهم الجديد على مبدأ الحرية والاستقلال وفي هذه المدة وضع لهم الشرائع وسنّ لهم السنن واستنزل من فضل الله سبحانه الوصايا العشر المعروفة لخيرهم ومصلحتهم

على ان سيدنا موسى عليه السلام لم يتوفق ليرى نتيجة مساعيه اذ قضى لرحمته تعالى قبل مباشرة العمل العظيم الذي خرج بآل اسرائيل من مصر لاجله وهو فتح ارض الميعاد فتولى قيادة اليهود سيدنا يشوع بن نون عليه السلام فسار الى بيت المقدس وحارب هناك الكنعانيين وغيرهم من أهالي البلاد الفلسطينية واستولى عليها وهكذا نشأت مملكة اسرائيل التي زهت ونمت وأزهر فيها العمران على عهد سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما السلام وكانا ملكين وحكيمين في وقت معاً ولهما مؤلفات حكمية منظومة مثبوتة في التوراة

والذي يقارن بين مملكة اليهود المار ذكرها وبين الممالك الوثنية التي عاصرتها في أجيالها يرى بوناً شاسعاً في العظمة والقوة والعلم والعمران وسعة السلطان ويحكم بداهة ان مدنية اليهود لم تكن بالشيء المذكور بجانب مدنية المصريين والآشوريين وغيرهم وهذه الآثار والعاديات القديمة فانها تحدثك بأجلى بيان عن هذه الحقائق التي لا يختلف فيها اثنان

نعم ان الذي كان يمتاز به اليهود عن غيرهم هو معرفة الاله الواحد وعبادته المجردة عن الاشراك والكفر والطغيان الا انهم عدا هذه الميزة فان الصناعة عندهم لم تكن راقية وكذلك التجارة «مع انهم أصبحوا في العصور التي ضاع فيها ملكهم قابضين على أعنة التجارة» اما علومهم فكانت دينية وأدبية لاغير وهذا ما بقي من مؤلفات علمائهم أعظم شاهد وما في التوراة من كلام سيدنا موسى الذي لاحظ فيه الامور الصحية فعلى الراجح انه منقول عن علوم كهنة المصريين ونتيجة اختباراتهم الطويلة وكذلك ما كان عندهم من مبادئ علم الهيأة على انهم لم يجاهدوا في علم من العلوم وليس لهم فيه أثر مذكور الا الفقه فانهم برعوا فيه في الاجيال الاخيرة أي التي سبقت مولد سيدنا عيسى

عليه السلام وكانوا بلا جدال أفضل مَن اشترع الشرائع في تلك العصور الجاهلية .

ولا بأس ان نورد هنا بعض الاسباب التي أفضت الى ضياع ملك اسرائيل فكانت حياة هذه المملكة قصيرة في اعمار الدول

فان الشريعة التي وضعت للاسرائيليين وسار عليها ملوكهم وعلماؤهم ورؤساء دينهم هي شريعة صارمة للغاية تجعل الخاضع لها عبداً مأسوراً في كل حركاته وسكناته في بيته وفي متجره في لباسه وفي مأكله بحيث وضعت هذه الشريعة للناس كما توضع الشرائع في المدارس لتربية الاولاد القصر وعلى ذلك لم يرغب بالدخول في اليهودية راغب بل كان الناس يهربون منها جهدهم لانها منافية كل المنافاة لفطرة البشر ومنغصة لمعيشتهم

وفوق ذلك فان اليهود أنفسهم قد خالفوا كل الشرائع التي وجدت في العالم فكانوا لا يسعون لتعميمها ولم يبزلوا شيئاً من الجهد في سبيل نشرها بين الناس ولا نعلم الحكمة التي جروا عليها في طريقتهم تلك ولكن تدلنا الدلائل على انهم كانوا يرغبون في حفظ عصبيتهم ويأبون ان يدخل بينهم دخيل كيف لا وشريعتهم تعتبر كل أجنبي عن بني اسرائيل هو بمنزلة الحيوان الاعجم فكانوا يحتقرونه احتقاراً حتى ولو تدين بدينهم فانهم ما كانوا يعترفون بمساواته لهم بل كانوا يأبون هذه المساواة على ابنائه «من امهم اليهودية» ولا يعترفون بالمساواة الا لاحفاده فتأمل ...

ويتضح لنا من هذا واضرابه ان اليهود ظلوا بغير نمو وكان احتقارهم لغيرهم وميلهم الغريزي الى الاستئثار بالمنافع والفوائد هو الذي جعل الناس يكرهونهم ويقصونهم عنهم ولهذا كان عهدهم بالاستقلال قصيراً جداً وكثيراً

ما كانوا يقعون تحت سيطرة الممالك المجاورة لهم فيسلبونهم اموالهم ويسبون أعراضهم ويخضعونهم لاحكامهم وأوامرهم ولا حول ولا حيلة لهم الا العويل والنواح على ما هو ظاهر في مؤلفات علمائهم الاعلام وفلاسفتهم العظام كارميا ونحميا وأشميا وعزرا الخ

وأفظع ماجرى لهم هو حادث السبي المشهورة يوم تغلب عليهم البابليون وسبوهم ذلك السبي المذكور في التوراة وهؤلاء البابليون أضاعوا على اليهود ملكهم وضيعوا كل امل لهم بالاستقلال الا ان عصبيتهم القوية جعلتهم ان يظلوا طامعين في الملك ومنتهزين الفرص للمجاهرة بالاستقلال على انهم ما كادوا يستجمعون قواهم ويسترجعون بعض ماتضعضع من شملهم حتى فاجأهم اسكندر المكدوني العظيم وأغار على ربوعهم وأضاع عليهم نفوذهم وسلطانهم وأخضعهم لشوكته وضمّ بلادهم الى امبراطوريته العظيمة التي شادها على انقاض الممالك القديمة والمدنيات الداثرة

ثم لما مات اسكندر المكدوني في ريعان شبابه واستولى وزراؤه على مملكته واقتسموها فيما بينهم عاد الاسرائيليون الى الطمع بالملك الا ان الامبراطورية الرومانية لم تمهلهم بل احتلت بلادهم على عهد هيردوس الكبير الذي في عهده ظهر سيدنا عيسى وهكذا ضاع ملك اسرائيل من الوجود

ويتضح من هذه الخلاصة التاريخية عن المملكة اليهودية ان هذه المملكة لم تخدم المدنية في زمن من الازمان بل بالعكس كان اليهود بتعصبهم منزوين عن غيرهم من الامم وكانت داخلية مملكتهم كما ترى في التاريخ ميداناً لمظاهر عباداتهم والمحافظة على عوائدهم

اما العلم فان الاسرائيليين كغيرهم من الامم قد اشتغلوا فيه من الوجهة الادبية

وكانت فلسفتهم ممتزجة بالدين امتزاج الماء بالراح وأعظم فلاسفتهم هو سيدنا سليمان عليه السلام ولبلاغة فلسفته لقبوه بالحكيم وعرف بهذا اللقب والذي يقرأ فلسفة سيدنا سليمان يراها مقتصرة على الزهد والورع والتقى والصلاح مع أقوال الحكمة التي نطق بها بعد ان اختبر بنفسه حلو الدهر ومرّه ونال من دنياه ماليس بعده من مطمع لطامع ثم رأى ان ذلك كله قد زال وانقضى ولذلك افتتح كلامه الفلسفي بقوله «باطلة الاباطيل وكلّ شيء على وجه الارض باطل» ثم أخذ يبين ببلاغته وعلوّ مداركه ماهو أغلى من الجواهر حقيقة من تلك المواعظ والحكم المعروفة بامثال سليمان

وكما كان سيدنا سليمان عليه السلام فيلسوفاً كان شاعراً أيضاً وقد ضمّ شعره الى التوراة بعنوان نشيد الانشاد وشعره في طبقة راقية على أن اباه سيدنا داود عليه السلام أقدر منه بالشعر وهذا الزبور وهو آية آيات البلاغة بلا جدال هو من نظم سيدنا داود وكلا الكتابان أي نشيد الانشاد والزبور قد ترجما الى العربية مع ترجمة التوراة ويراهما القاريء الكريم في هذا الكتاب على غير بلاغتهما الاصلية لما تعلم من البون الشاسع بين أصل كل تأليف وترجمته ولا سيما اذا كان شعراً

على ان لانسبة مع ذلك كله بين الفلسفة اليهودية والفلسفة البابلية والمصرية واليونانية والرومانية وذلك لمزج فلاسفة اليهود فلسفتهم بالدين ولانشغال عقولهم بشواغل السياسة المزعجة ولا سيما لانهم كانوا تقريباً كل يوم في نكبة من نكبات الدهر لعدم امتزاجهم مع الامم الذين كانوا يخالطونهم وفي جوارهم

# الفصل الرابع

## في مدنية المصريين واليونانيين

ان التاريخ المصري او بالاحرى تاريخ المدنية المصرية مجهول وما في العلماء من وقف على مصدر المدنية المصرية على ان الرأي الغالب عند الباحثين هو ان المصريين هم واضعو اساسات مدنيتهم لا ينافسهم في ذلك الا الاشوريون ولكنها منافسة لم يقم عليها برهان حتى الآن بل كانت البراهين ضدها لان مابين ايدي العلماء في المتاحف حتى الساعة ما يجعل المدنية المصرية ارقى بكثير من المدنية الاشورية واقدم منها فضلا عن انها اسمى مدنيات العالم القديم فاذا ظلت الاكتشافات الاثرية على هذا المنوال كان المصريون بمقدمة اهل الفلسفة والعلم والصناعة والزراعة والتجارة في الزمان القديم ويكفي لتأييد هذا الاعتقاد ان يذهب القاريء الكريم لزيارة المتحف المصري ويتجول فيه ساعة من الزمان ليرى ما كان في ديار مصر من العمران مما لا نظير له في تواريخ سائر الامصار والبلدان وليمرّ بعوده على الاهرام ويستنطق حجارته عن ذلك الملك العظيم الذي دال والمجد الفخيم الذي زال

ويظهر ان المصريين بلغوا مبلغاً عظيما في مدنيتهم من اقدم تاريخهم حتى توصلوا في بديع الصناعة الى مالم تتصل اليه مدارك اهل العصر الحاضر عصر الكهرباء والبخار ولا حاجة الى القول بان البراعة بالصناعة هي الدليل الاوفى على براعة المخترعين لها بالآداب والمعارف والعلوم وتعمقهم في اسرار الطبيعة وما خفي من امرها بل ان الصناعة باجماع العلماء هي الدليل الاوفى على رقي الامة ومدنيتها فانظر اليوم تجد الصناعة الراقية على اختلافها في

اورو با واوروبا نفسها هي مهد المدنية في هذا العهد الحاضر وعلى هذا القياس تكون المدنية المصرية ليس فقط اقدم كل المدنيات التي كانت في العهد القديم بل هي ارقاها ومخلفات المصريين الاثرية هي باقية الى الابد لتحدث الخلف عن ذلك السلف العظيم

اما المدنية اليونانية فهي بلا شك احدث بكثير من مدنية المصريين وعلى رأي العلماء الباحثين ان المدنية اليونانية مكتسبة من مدنية المصريين والفينيقيين.قالوا ان الفينيقيين وهم اجداد السوريين وسكان سواحل سوريا الاصليين هم اول من ركب البحار للاتجار وهم مخترعو السفن والمراكب ذات المجاذيف وهم اول من اغترب عن بلاده وساح في بعيد الامصار هذا ما اتصل بالمؤرخين المحققين عن الفينيقيين الا انهم لم يكونوا اهل سياسة وحروب لذلك لم يتركوا اثراً خالداً في عالم التاريخ بل تركوا ذكراً جميلاً لانهم كانوا الصلة الحسنة بين الثغور والامصار يتنقلون من ديار الى ديار

وقال العلماء لا يبعد ان يكون الفينيقيون اجداد اليونانيين اي ان فئة من اهالي فينيقيا كانت قد ارتحلت الى الجزر والسواحل اليونانية وسكنتها ولا فرق بين ان يكونوا هم المستعمرون الاصليون لتلك البقعة او ان يكونوا قد اختلطوا بسكانها الاصليين وتألفت الامة اليونانية من هذا الخليط

والذي يؤيد اقوال العلماء هذه هو المناسبة الكائنة بين اهالي سوريا واليونانيين في السحنة ولون البشرة والاخلاق والعوائد ولاسيما في الاتجار وركوب متن الاسفار مما يكاد يتشابه به القومان ولولا اللغة والدين ( وكلاهما عارضان ) لما فرّق مفرّق بين افراد الامتين

وعلى هذا لا يبعد ان تكون المدنية اليونانية مأخوذة عن مدنية

الفينيقيين والمصريين معاً وقد تكيفت حسب ظروف الزمان والمكان بما يلائم السكان. فبرع اليونانيون في حروبهم الشهيرة ولفرط شغفهم بابطالهم حسبوهم آلهة او انصاف آلهة وعبدوهم على ماترى في اشعار هوميروس اكبر شعرائهم ثم اخذوا الحكمة ولا شك عن كهان المصريين وتصرفوا فيها وبرعوا براعة ما وراؤها من مزيد حتى اصبحت فيهم وانتسبت لهم وانتمى فخارها اليهم فلا تكاد تذكر الفلسفة الا و يخطر لك في الحال ذكر فلاسفة اثينا اليونانيين كسقراط وافلاطون وارسطوطاليس وغيرهم

ويظهر لنا على سبيل المطالعة والتخمين ان اليونانيين اختلسوا فلسفة كهان المصريين اختلاساً فبينما كان هؤلاء الكهنة يحافظون عليها قام هؤلاء ينشرونها حتى روي عن سقراط انه كان يجلس على قارعة الطريق ويلقن فلسفته للمارّة ولهذا شاع ذكر اليونانيين في الفلسفة دون المصريين واضعيها وهذا هو رأي أكثر العلماء ومع هذا كله فان فضل اليونانيين على الفلسفة لا ينكر فانهم وان كانوا قد تلقوا مباديها عن المصريين الا انهم توسعوا فيها توسعاً كبيراً ونبغ فيها افراد مشاهير لا يزال ذكرهم يرن في الآذان على توالي السنين والازمان

ولقد كانت هذه الفلسفة سبباً كبيراً لتقدم اسكندر المقدوني العظيم وفتوحاته الهائلة العظيمة اذ من الثابت ان ارسطوطاليس الفيلسوف وهو تلميذ افلاطون تلميذ سقراط هو الذي هذب الاسكندر وثقف مداركه ولا يبعد ان يكون قد بثّ فيه روح الحرب خدمة للهيأة البشرية لان حروب الاسكندر لم يختلف اثنان في فائدتها للمجتمع البشري حيث اختلط الناس في العالم المعمور اذ ذاك على اختلاف اشكالهم ومذاهبهم ونحلهم اختلطوا ببعضهم وتعارفوا فاستفاد جاهلهم من عالمهم ووقف بعضهم على ماعند البعض

الآخر من العلوم والآداب والمدنية وهكذا قامت مدنية اليونانيين على انقاض المدنية القديمة في مصر وسوريا «فيما فيها اليهودية» وما بين النهرين وبلاد تدمر وكورش الخ واصبح الملك اليوناني عاماً شاملاً بعد الاسكندر لاكثر هذا العالم المعمور ولكن لم يكن بسلطة واحدة بل تعددت السلطات فيه فكان ذلك داعياً لتضعضعه لان الاسكندر بعد ان مات في ريعان الشباب بغير عقب اقتسم قواده الاربعة ملكه فاصبح اربع ممالك لم تلبث ان انتقضت على بعضها بعضاً

---

## الفصل الخامس

### في المدنية الرومانية

يبتدي تاريخ المملكة الرومانية من الجيل الخامس قبل المسيح ويقال ان الرومانيين واليونانيين قد ابتدأت مدنيتهما بعصر واحد تقريباً وان جدي الشعبين كانا اخوين احدهما سكن اثينا وكان اسمه ايلينوس وتسمى اليونانيون باسمه وثانيهما استعمر رومية وكان اسمه روميلوس فدعيت باسمه وكان جد الرومانيين ويستشهد العلماء بأن هاتين الامتين من أصل واحد كما استشهدوا على ذلك بما بين اليونانيين والفينيقيين من وحدة الملامح ولون البشرة والميل الى السفر والاتجار الخ

على ان المملكة الرومانية لم تسد على اكثر العالم المعروف الا قبل ظهور سيدنا عيسى عليه السلام باقل من قرن حيث قامت مملكتهم على انقاض مملكة الاسكندر اليونانية التي اقتسمها قواده الاربع على ما مرّ بنا

وهكذا ورث الرمانيون المدنيات القديمة وغيروابها وابدلوا وازادوا وانقصوا على ما لاح لهم وانتهت اليه مداركهم

وكان الرومانيون ارقى شعوب ذلك العصر مدنية بفضل ما اكتسبوه من الامم الذين تغلبوا عليها وازهرت عندهم الحكمة ووضعوا الشرائع العادلة الى آخر ما جاءوا به من البراهين على مبلغ مدنيتهم ورقيهم فكأنهم قد جمعوا الحكمة القديمة وتوسعوا فيها

وكان الرومانيون في ذلك العصر عاملين على كسر قيود العادات القديمة وراغبون في الحرية ولذلك كانوا كثيراً ما ينتقضون على هيأة حكومتهم ويغيرون فيها ويبدلون فكنت تراها تارة امبرطورية مطلقة وطوراً حكومة قناصل وآونة جمهورية

وكان تغير هذه الاحوال السياسية في رومية وتبدل الملوك والحاكمين في هيأة الحكومة مما يبعث الى تغير الاحكام وانتقالها من حال الى حال فبينما يتربع على كرسي رومية ملك عادل او هيأة عادلة فيعم العدل الرعية واذا بزوبعة سياسية تهب من تلك المدينة العظمى التي يسمونها تعظيما لها بامّ المدائن وتنجلي عن مقتل الملك او تغيير شكل الحكم فيتحول العدل الى الظلم والانصاف الى الاعتساف والعكس بالعكس

ويجب ان يلاحظ في عهد الرومانيين الذي فيه سادت دولتهم على العالمين هو مدنيتهم التى قامت على انقاض كل المدنيات القديمة لتملكهم كل الممالك القديمة واصبح في قبضتهم زمام العلم والمعرفة والحكمة والسياسة كما كانت لهم الزعامة والرئاسة بحكم القوة وحسن السياسة ودهاء الرجال الذين كانوا قابضين على زمام الامور في الامبراطورية الرومانية

والذي لاحظه المؤرخون في رجال رومية انهم كانوا واسعي المدارك حسني السياسة يمتازون عمن سواهم في التربية والآداب وبعد مواقع النظر مع سمو المدارك والحزم والعزم والشدة في مواضعها والتساهل في مواضعه ويشبهونهم برجال الانكليز السكسونيين في عصرنا هذا وفي مثل سياستهم ودهائهم في سياسة رعاياهم المنتشرين في اطراف العالم ولاحظوا أيضاً انهم كانوا يعتمدون في سياسة رعاياهم المختلطي الاشكال واللغات والاجناس على المبدأ الذي اتبعه الانكليز في هذا العصر في سياسة رعاياهم

والذي يبحث ملياً في تاريخ هذا العصر الروماني في الشرق والغرب يرى فيه ان الحكومة الرومانية كانت تكتفي بالسيطرة وقبض الجزية وفيما سوى ذلك فانها كانت تطلق الحرية التامة للرعايا في دينهم وآدابهم وعلومهم ومعارفهم وأعمالهم ولذلك كانت الولايات الرومانية بجملتها على أحسن حال من هذا القبيل

وقد عابوا الحكم الروماني بكثرة تغير وتبدل الولاة والعمال اتباعاً للتغيير والتبديل الذين كانا يحدثان كثيراً في مركز الامبراطورية نفسه الذي كان يفضي على الغالب الى الاضرار باهالي المستعمرات الرومانية ويجعلهم في هرج ومرج دائمين لما كان يعقب ذلك من تبدل حكامهم واحكامهم وعلى كل الاحوال فان ما لا ريب فيه هو ان مدنية هذا العصر كانت قد تقدمت على المدنيات القديمة بفضل تسهيل المواصلات وتوحيد الحكم الاعلى واختلاط الشعوب ببعضها الذي نجم عن حروب اسكندر العظيم المكدوني

والذي كان يتعب الرومانيين على الاكثر هم اليهود سكان اورشليم فانهم كانوا متعصبين برابطة الدين والجنس وكانوا شديدي التمسك بكتابهم وتقاليدهم

الى حد التعصب فيحتقرون الحاكمين وهم المحكومون والغالبين وهم المغلوبون على امرهم ويأبون الخضوع لسلطة اجنبية عن جنسهم ودينهم بدافع ديني عظيم كان يجعل مركز الاحتلال الروماني في ولاية بيت المقدس دائماً ابداً في أضطراب

وكان اليهود يقاومون هيرودس الكبير ملكهم الذي سالم الرومانيين الوثنيين ويشهرون الثورة عليه لدى اقل الاسباب حتى اضطرّ مراراً الى مهاجمتهم في هيكلهم (هيكل سيدنا سليمان) ونكل بهم تنكيلاً اكثر من مرة

وبعد موت هيردوس الكبير اقتسم اولاده المملكة اليهودية بامر اغسطس قيصر الرومانيين حباً منه باشغال سكان اليهودية ببعضهم عن الرومانيين فازداد الشرّ شراً فلم ير الامبراطور في الاخير الا ان يدخل اليهودية في حكم الرومانيين وكانت على شكل احتلال عسكري وهكذا فعل فرفع الحكم من ايدي اولاد هيردوس الكبير وتعين ولاة رومانيون لهذه الولاية فلم يفده ذلك

وبالجملة فان اليهود لم يكونوا في عهد هيردوس الا كما كانوا في عهد القضاة والملوك الاسرائليين اصحاب مدنية واحدة مرتبطة بالدين ارتباطاً لا انفكاك له فكانوا يطبقون كل اعمالهم واحكامهم على النصوص التي وردت في التوراة او التي اجتهد بها المجتهدون من الحاخامين ودعوها باسم التلمود. على ان اليهود ليسوا هم وحدهم كانوا يخضعون مدنيتهم للدين بل كان ذلك شان جميع الممالك والحكومات التي تحضرت وتمدنت في كل زمان ومكان حتى الآن

# الفصل السادس

## نتيجة لهذه المقدمات

ذكرنا ما ذكرنا عن مجمل عهد الامم بالمدنية منذ التاريخ القديم وتولينا بعد ذلك البحث عن مدنية المصريين والآشوريين واليونانيين والرومانيين واليهود فما الذي استفدناه من ذلك ؟؟ هذا ما نبحث فيه في هذا الفصل فنقول بالايجاز :

ان كل هذه الامم التي ذكرناها كانت تعبد الانصاب والاصنام وكان الكهان هم قادة العقول وهداة الامم الى الصواب في المعارف والآداب ومع ذلك فقد كانت المدنية عندهم ارقى بكثير من المدنية اليهودية التي شابها تشديد المجتهدين وتعصب رجال الدين

وكان تعصب اليهود بدينهم وتمسكهم بعصبيتهم وازدراؤهم بكل من عداهم من الامم والشعوب حائلاً عظيماً وسداً منيعاً بينهم وبين الامم الاخرى فامتنعوا عن مخالطتهم في الوقت الذي كانوا فيه محتاجين الى الاستفادة من معارفهم وصنائعهم ورقيهم ومدنيتهم وظلوا وحدهم مستقلين بانفسهم راضين بما بين ايديهم من آثار علمائهم واحبارهم حاسبين ان فيه كل العلم وكل الفلسفة وكل ما يحتاج اليه الانسان في دنياه واخراه

وعلى هذا كان الشعب اليهودي ادنى مدنية من الشعوب التي كانت بجواره ولم يستفد من دينه الالهي رقياً لان الحاخامين والاحبار جعلوا هذا الدين وسيلة للسيطرة على عقول الشعب والانتفاع مما بين ايديهم ولما كان غرضهم هذا الانتفاع وتلك السيطرة كان من الضروري لهم ان يعملوا كل ما في استطاعتهم للحجر على تابعيهم والعمل على ابقائهم جهلاء كما كان الحال عند

كهنة الاديان الوثنية الذين كانوا يحفظون العلم بصدورهم كسرّ مصون لا يبوحون به الا لمن انضمّ الى زمرتهم واصبح واحداً منها حرصاً على بقاء العامة في ظلمات الجهالة وتوصلاً لاستعبادهم

ولم يشذّ عن هذه القاعدة سوى فلاسفة اليونان الذين كانوا يجلسون على قارعة الطريق ويعرضون فلسفتهم على العامة ويرغبونهم في تلقيها وتعلمها وكان ذلك منهم لانها اتصلت بهم واكثرهم من عامة الشعب وليسوا من الاشراف ولا من الكهنة المسيطرين على النفوس والعقول وقد مالوا للفلسفة حباً بها ورغبة في الاستفادة منها خلافاً لغيرهم ممن جعلوها وسيلة لابتزاز الاموال

ولما نهضت المملكة الرومانية نهضتها الاخيرة وشادت باذخ مجدها على انقاض اليونانيين جعل علماؤهم وفلاسفتهم ينشرون علومهم وادابهم للجميع منيطين الحجاب عما كان سراً مكنونا بافئدة كهنة المصريين والاشوريين فزهت بذلك المدنية والحضارة وتقدم العمران وتلألأت انوار المعارف والآداب في الامصار والبلدان

## الفصل السابع

### نظارة في الدين

ان اركان المدنية الحقة هي ثلاث الدين ، والفلسفة ، والسياسة ، فالشعوب التي عرفت الله عزّ وجلّ حقّ معرفته ووحدته توحيداً ، وعبدته عبادة صادقة وآمنت بانبيائه ورسله عليهم السلام وسلم معتقداتها من شوائب التحريف والتصحيف غنيت في مدنيتها عن الفلسفة او بعبارة افصح اخضعت الفلسفة للدين لان الدين الصحيح لا ينافي الفلسفة الصحيحة

والوثنيون الذين اقاموا دعائم اديانهم على اساس الفلسفة او بالاحرى استنتجوا اديانهم من الفلسفة على ما ابانه لهم فلاسفتهم وعلماؤهم وكهانهم اضطروا ان يعولوا على الفلسفة واركزوا مدنيتهم عليها وجعلوها محور عباداتهم وعاداتهم

والدين بعرف العلماء هو وضع إلهي يسوق ذوي العقول الراجحة ممن اختاروه وخضعوا له الى الصلاح فتسعد احوالهم في الدنيا وينالون جزاء اعمالهم الصالحة الحسناء في الآخرة في جنان الخلود ويحظون هنالك بالغبطة الابدية الدائمة

وهذا التعريف هو عام شامل يشمل اعتقاد الانسان وصالح عمله بحيث يكون الايمان بغير صالح الاعمال قليل الجدوى عديم النفع كما يجعل الاعمال الصالحة بغير ايمان صحيح لا فائدة من ورائها وهذا الارتباط بين ايمان الانسان الصحيح وعمله الصالح معقول يسلم به كل ذي وجدان او هو ارتباط ملازم بين العلم والعمل واسناد احدهما للآخر واجب لا ريب فيه

ولعمري ان الانسان اذا عرف الله جل جلاله وآمن بكتبه ورسله اليس عليه ان يأتمر باوامره وينتهي بنواهيه ؟؟؟ ولا سيما فانها وضعت في الاصل لخيره وخير اخوانه في الانسانية على ان هذا نعده من البديهيات التي لا تحتاج الى بيان او ايضاح

وقد خصّ الله سبحانه وتعالى الدين بالاسلام اذ ورد في القرآن الشريف « ان الدين عند الله الاسلام » وقال اسلافنا الصالحون ائمة هذا الدين الحنيف ان الدين ينسب الى الله عزّ وجل لصدوره عنه فيقال دين الله وينسب الى النبي الامين صلى الله عليه وسلم لظهوره منه فيقال الدين المحمدي وينسب الى الامة التي ظهر فيها فيقال الدين العربي

وقد فرق علماؤنا الاعلام بين لفظة دين وملة ومذهب فقالوا بالنظر الى ان الشريعة تطاع تسمى ديناً وبالنظر الى انها تجمع شتات الطائعين تسمى ملة وبالنظر الى انه يرجع اليها تسمى مذهباً . وقال بعضهم ان الفرق بين هذه الالفاظ هو ان الدين ينسب الى الله سبحانه وتعالى والملة تنسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمذهب ينسب الى العالم المجتهد المشتغل في التفسير والتبيين فيقال دين الله وملة محمد ومذهب ابي حنيفه

اما الشرع فيطلق عليه ايضاً اسم دين وملة فمن حيث ان الشرع عبارة عن احكام مرعية تطاع فهي دين ومن حيث انها تملى وتكتب وتسطر فهي ملة ومن حيث انها مشروعة فهي شرع على ان الشريعة والملة تنسبان الى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يجوز نسبتهما الى الله سبحانه وتعالى خلاف الدين الذي ينسب لله عزّ وجلّ ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين

وعرف بعضهم الدين فقالوا هو الايمان بوجود الله عزّ وجل ورسالة رسوله صلى الله وعليه وسلم وبالتزام طاعته وبالاعتقاد بالثواب والعقاب ويوم الحساب. وقال غيرهم ان الدين لا يكون بمجرد الاعتقاد بلا صالح الاعمال كما لا يكون بالاعمال الصالحة بلا اعتقاد . وقال آخرون ان الدين هو عبارة عن القيام بالفروض المتعلقة بالله عز وجل بصرف النظر عن الفضائل ولكنه قول ضعيف

هذا خلاصة اقوال اسلافنا الصالحين في تعريفهم الدين اما النصارى فعندهم ان الدين هو عبارة عن مجموع النواميس الضابطة لنسبة الانسان الى الله او بين صفات تلك النسبة . وقال واحد من كبار علماء الافرنج يسمى باسكال « ارى اديانا كثيرة متناقضة فكلها باطلة خلا دين واحد (؟؟) . فاختلاف الاديان وتباينها وتضاربها ناشيء عن مطامع الرجال واثمهم . والدين ثابت في قواعده

وجوهره ولكنه يختلف في صورته الخارجية فينشأ عن ذلك الخرافات والبدع . ومن اخطر الامور للحكمة البشرية البحث عن ثبوت الدين واتحاده في قرون كثيرة مع طروء التقلبات والفساد على صورته . وقد ملئ تاريخ الدين باخبار التقلبات والفساد ومع ذلك يردّ الانسان الى مرجعه وهو الله سبحانه وتعالى . ولا تزول جميع الحقائق من الدين وان اكتنفته اغلاط عظيمة وستر بظلمات مدلهمة اهـ » نقول وهو قول وجيه ينطبق على ما جاء في القرآن الشريف العزيز الذي قام علماء اوروبا في هذه الايام يؤيدونه بعد ثلاثة عشر قرنا وهم يعلمون ولا يعلمون

نعم ان الدين الحقيقي واحد لانه ينتمي الى الحقيقية الازلية وهي الله سبحانه وتعالى والحقيقة كما تعلم لا تجزأ ولا تتقسم وما هؤلاء الانبياء والرسل عليهم السلام الامرسلون من عند الله هدى للعالمين ولو سلمت كتبهم من التصحيف والتحريف وسلمت قلوب الشراح والمجتهدين من الزيغ في فهم الحقائق لما وجدت في الناس اختلافاً في اديانهم ولكن كان ذلك بسماح من الله

انما الناس في اختلاف عقول مثلما الناس في اختلاف وجوه

وقد ايد ذلك قرآننا الحكيم اذ جاء فيه « ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة » صدق الله العظيم

ومما رأينا في تعريف الدين عند علماء المسلمين والنصارى يتضح لنا ان الدين الالهي كان معاصراً للمدنية وعوناً كبيراً لها أو بالاحرى ان دعاة المدنية استعانوا بالدين على تعزيز مدنيتهم أو ان أرباب الاديان أرادوا ان يعضدوا المدنية بوضعهم المبادىء المؤيدة لها والمساعدة على نموها ورقيها والمسهلة لتعزيز أركانها في الهيأة الاجتماعية حباً بخير الانسانية

هـذا في الاصل يوم وضع الانبياء عليهم السلام قواعد الدين وضموا اليها كل ما يحتاج اليه الانسان في دنياه من المبادئ الآيلة لنفعه ولو اقتصر الناس على ماتلقوه عن أنبيائهم لما وجـدت الوثنية في الوجود ولما اختلف الالاهيون أي عبدة الله عزّ وجلّ في فهم حقائق دينهم وانقسامهم الى فرق ومذاهب وشيع لان كل الانبياء والمرسلين عليهم السلام هم كما قلنا من مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى فمن الضروري ان تكون تعاليمهم الدينية واحدة منطبقة على استعداد الناس وملائمة لفطرتهم ومحسنة لاحوالهم في دنياهم ومهيئة لهم الخلود والسعادة في معادهم ولكن من أين يكون ذلك للانسان وقد خلق حريصاً على منافعه مغالياً في انانيته يتمنى لو اتيح له استخدام العناصر ليستخدمها فيما يعود عليه بالمنفعة والفائدة واللذة وهكذا توسع المجتهدون في الاديان وبعدوا بها عن الحالة التي أوجـدها الخالق الديان وما زال الناس في هذا الاضطراب في أمور دينهم الى ان وفقهم الله بارسال رسوله النبي العربي الأمي الذي جاء بالقول الفصل وفصل الخطاب بأفصح بيان في كتابه القرآن وقد سلم الله هذا الكتاب الشريف من التحريف والتخريف فكان هدى من ربك للعالمين والله بصير بالعباد واليه المعاد سبحانه أرحم الراحمين شفوق على المهتدين

---

## الفصل الثامن

### نظرة في الفلسفة

ان الفلسفة هي لفظة يونانية معربة أرادوا بها الحكمة وتأويلها الحقيقي محبة الحكمة . ولقد اختلف الحكماء في تحديد الفلسفة فقال قوم انها التأنق

في المسائل العلمية والتفنن في الآداب والمعارف والعلوم وقال غيرهم ان الفلسفة عبارة عن سوء العقيدة في الدين وكأن هؤلاء أرادوا ان يذكروا هذا التعريف للفلسفة اذا استعين بها على محاربة الاديان او تحول صحيح الدين بسفسطتهم الى الكفر والاشراك والطغيان

وتعريف الفلسفة أو الحكمة على مانرى هو عبارة عن البحث عن حقائق الاشياء على ماهي عليه بنفس الامر على قدر الاستطاعة البشرية وعلى ذلك فيكون موضوع الفلسفة هو الاشياء الظاهرة للعيان أو التي يمكن تصورها في الاذهان . وتكون الغاية من الفلسفة هي التشرف بالكمالات في العاجل والفوز بالسعادة في الاجل وعلى هذا الشكل تتفق مع الدين ولا تنافيه

ويظهر من هذا التعريف الصحيح ان الفلسفة مثل الدين وترتبط معه في مسألة معرفة الحقائق والعمل للوصول الى السعادة في الدارين دار الدنيا ودار الآخرة وعلى ذلك تكون الفلسفة الحقيقية غير منافية للدين الحقيقي بل مرتبطة معه ارتباطاً محكما نظريا وعمليا لان الحقيقة واحدة لاتتجزأ كما سبقت الاشارة

وقد قسموا الفلسفة الى أقسام منها مايخص العبادات فدعوه بالفلسفة الالهية ومنها مايخص ادارة الاحكام فدعوه بالفلسفة السياسية ومنها مايخص الاعمال البشرية من صناعة وزراعة وتجارة ودعوه بالفلسفة المدنية ولا محل هنا للافاضة في أقسام الفلسفة هذه ولكن الغرض من كلامنا عنها هو بيان ارتباطها بالمدنية من جهة الدين ومن جهة المعاملات

ويتضح لنا ان الفلسفة باجزائها الثلاث التي سبقت الاشارة اليها هي

ضرورية للمدنية وخادمة لها ومؤيدة لنموها وعاملة على زهوها ويدخل في تحديدها انواع العلوم والمعارف والآداب . ولذلك عني بها الاقدمون وكان نجاحها الاتم ومنشأها الاسمى في البلاد اليونانية على ما قلنا واتخذها الناس عن اليونانيين وكان ذلك بفضل فتوحات اسكندر المقدوني العظيم حيث اختلط حابل الناس بنابلهم ووقف الكثيرون من علماء الامم والشعوب على اللغة اليونانية ودرسوا الفلسفة اليونانية ولا ريب ان الامة اليونانية كانت في ذلك العهد قد برّزت في فلسفتها على العالمين في تلك العصور العريقة في قدميتها

ولقد بنى الرومانيون فلسفتهم على انقاض الفلسفة اليونانية واستخلصوا من تلك الاراء المختلفة رأياً ملائماً للاراء التي كان يختلط حابلها بنابلها وكثيراً ماكان الفلاسفة يناقضون بعضهم بعضاً مع ان فلسفتهم مبنيـة على معرفة الحقيقة والحقيقة واحدة لايمكن ان تتجزأ

وعلى هـذا فالفلسفة منيت بقصر مدارك الذين تعشقوها وقضوا فيها أعمارهم بما مني به الدين من قصر مدارك الذين شرحوا متونه وفسروا غوامضه وأدخلوا عليه مايلائم أغراضهم وأمانيهم كأنه أصل فيه

على ان البئة (أي الوسط) التي أزهرت فيها الفلسفة الرومانية كانت أرقى بكثير من البئة التي وجـد فيها فلاسفة اليونان وغيرهم ممن تقدمهم في اشور وبابل ومصر وهكذا كانت فلسفتهم أرقى من الفلسفة اليونانية وغيرها اتباعاً لسنة النمو والارتقاء وهي سـنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

على اننا يجب ان نراعي أيضاً في هـذا البحث فلسفـة الامم الاخرى فيظهر لنا ان اليونانيين لم يكونوا واضعي اساسات الفلسفة بل هم الذين اذاعوها ونظريتنا هذه بنيناها على ما ترى :

ان كهنة المصريين على ما يقول علماء التاريخ كانوا على جانب عظيم من الحكمة والمعرفة ولكنهم جعلوا فلسفتهم ككل معارفهم أسراراً دينية لا يجوز ان تباح للعامة حفظاً لكرامة رجال الكهنوت أو توصلاً لاستعباد الناس والسطو على ما بين أيديهم وهم جهلة غافلون ولا يبعد ان تكون الامم التي عاصرت المصريين في أدوارهم الاولى كانت ذات مبادئ فلسفية وعلى شيء من المعارف والعلوم العالية وكانوا يضنون بها على العامة أيضاً

ويغلب على الظن ان اليونانيين بواسطة من الوسائط تمكنوا من الوقوف على فلسفة المصريين أو غيرهم من الشعوب الراقية فاذاعوها بين الناس واكتسبوا بذلك هذا الذكر العاطر المجيد ونسبت الفلسفة اليهم حتى دعي نابغتهم ارسطوطاليس باسم الفيلسوف ويدلنا على هذه النظرية بالاكثر هو ان كلمة حكمة المرادفة كلمة فلسفة يراد منها لغة السداد ومعرفة الصواب من الخطأ واصطلاحاً يراد منها خلاصة ما اتصل بالناس من المعارف الصوابية وعلى ذلك تكون كل أمة عريقة في المدنية ذات فلسفة مخصوصة بما تلائم مدنيتها وعلى قدر استعداد البيئة التي هي عائشة فيها والله أعلم

# الفصل التاسع

## نظرة في السياسة

ان السياسة ترتبط بالمدنية ارتباطاً محكماً لان على قدر حظ البلد من سياسة اهله يكون حظهم من الحضارة والمدنية وقد عرف السياسة ابو البقاء في كلياته فقال « هي استصلاح الخلق بارشادهم الى الطريق المنجي في العاجل والآجل . وهي من الانبياء على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم ومن السلاطين والملوك على كلّ منهم في ظاهرهم لا غير . ومن العلماء ورثة الانبياء على الخاصة في باطنهم لا غير » وقال صاحب اللؤلؤ النظيم « السياسة علم باصول يعرف بها انواع الرئاسات والسياسات المدنية واحوالها » وكتب ارسطوطاليس الفيلسوف اليوناني الشهير لتاميذه اسكندر ذي القرنين دائرته المشهورة في السياسة فقال له « العالم بستان سياجه الدولة . الدولة سلطان تحيا به السنة . السنة سياسة يسوسها الملك . الملك نظام يعضده الجند . الجند اعوان يكفلهم المال . المال رزق تجمعه الرعية . الرعية عبيد يكنفهم العدل . العدل مألوف به قوام العالم » وقد جعل ارسطوطاليس كلماته هذه كالحلقة المفرغة تبتدي من حيث تنتهي في السياسة المراد منها خير العالم الذي لا يزهو الا في المدنية

وقد قسم الحكماء علم السياسة الى ثلاث اقسام كبرى القسم الاول في السياسة الداخلية والقسم الثاني في السياسة الخارجية والقسم الثالث في السياسة المدنية وهنذا نذكر ما يحتمله المقام في هذه الاقسام الثلاثة التي لا تخلو من فائدة ما فنقول

السياسة الدخلية — ان السياسة الداخلية تتناول ادارة شؤون البلاد وتنظيم حكوماتها على ما يلائم معتقدات وعوائد واخلاق الذين تنتظم الحكومات لخيرهم وراحتهم . فيتولى ارباب السياسة في هذه الحالة حفظ الراحة والامان في البلاد والعمل على تعميم الانصاف والعدل ومنع المظالم والمغارم وترويج الصناعة والزراعة والتجارة تنمية لثروة الافراد الذين تتألف من ثرواتهم ثروة الحكومة التي تحكمهم والسهر وراء تعميم العلوم والآداب في ربوعهم كل هذا يجب ان يعنى فيه اهل السياسة والرئاسة توصلاً الى ترقية الشعوب في مدارج المدنية ومراقي الحضارة

السياسة الخارجية — والقسم الثاني هو السياسة الخارجية . او الدولية. وهو فنّ يبحث في العلائق المتصلة بين الدول والمصالح المتضاربة والمتباينة بينها بحيث يشتغل اهل السياسة والرئاسة في تعزيز الجنود البرية والاساطيل البحرية والنظر بموادة بعض الدول ومقاومة البعض الآخر ومخالفة هذه ومناقشة تلك الى آخر ما يكون فيه صيانة المملكة وحقوق افراد الرعايا وتنمية متاجرهم والتكثير من رواجها في جهات الارض الى آخر ما يكون هنالك من المصالح التي تؤيد الملك وتحفظ السلطان وترقى بالرعايا

السياسة المدنية — والقسم الثالث هو السياسة المدنية وهو عبارة عن تدبير المعايش العمومية على سنن العدل والاستقامة وقد عرفها السياسيون بقولهم انها بيان التدابير اللازمة لادارة اعمال البشر بحيث يجري كل انسان في عمله على السنن الطبيعية الضابطة لسعيه واجتهاده في ترقية حاله

والسياسة المدنية وجدت في الاصل مع الانسان ثم تقدمت بتقدمه من غير ان تكون معروفة باسم مخصوص واول من كتب فيها على ... التعدل بما هو

ارسطوطاليس الفيلسوف بما نستفيده من تآليفه الثلاث واولها في الآداب وقد اقتصر في هـذا الـكتاب على البحث عن الانسان وحـده وثانيها في السياسةوقد اقتصر في هذا الكتاب على البحث عن نسبة الانسانالى امثاله في مجتمعهالمدني وثالثها في الاقتصاد واقتصر في هذا الكتاب على البحث عن علاقة الانسان بزرع الارض وحرثها

ولقد اغفل الناس في القديم السياسة المدنية تماماً فكان الغني هو الذي يمتلك الاراضي والاطيان ويأتي بالناس عبيداً فيسخرهم في زراعتها وحراثتها وكان الرومان يترفعون عن التجارة والصناعة فتركوها لعبيدهم والذين وقعوا تحت سيطرتهم من الامم والشعوب واشتغلوا في الحرب والجلاد وتوصل غلوّهم في احتقار التجارة والصناعة الى ان قضى فيه اوغسطس قيصر على اوقينوس احـد نبلاء الرومانيين بالاعدام لتحقيره نفســه بادارة احدى المعامل الصناعية

واول ملك من الرومانيين نصر السياسة المدنية هو الامبراطور يوستينيانوس الذي وضع شريعة للتجارة والصناعة والزراعة فـكان دليلاً على سياسة مدنية مقررة ثم تبعه شارلمان ملك فرنسا الذي اشترع شريعة تلمّ بمبادي السياسة والاقتصاد سنة ٨٠١ مسيحية

ولم يكن للسياسة المدنية حظ في بدءالقرون المتوسطة فى الغرب كما لم يكن للمعارف والعلوم من نصيب في ذلك العهد في اوروبا وهذه النهضة التي نراها الآن في اوروبا قد ابتدأت منذ القرنالسادس عشر في ايتاليا ثمفياوائل القرن السابع عشر استيقظ الانـكليز لمنافع التجارة الاجنبية ورأوا اضطرار ملـكهم الى موارد مقررة تفي بحاجاته فعززوا التجارة الخارجية وبذلوا في

سبيل نجاحها كل ما تمكنوا من بذله من جاه ومال وكانت النتيجة ما نراه اليوم من اتساع نطاق مملكة الانكليز في مشارق الارض ومغاربها وغناهم المفرط الذي لا يعادله غنى في امم العالمين

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر اتبعت فرنسا خطوات انكلتره في السياسة المدنية على عهد ملكها لويس الرابع عشر وسار الفرنسويون مع الانكليز جنباً الى جنب ولكن حال دون وصولهم الى ما وصل اليه الانكليز اضطراب احوالهم الداخلية وقيامهم ضد ملوكهم وتغيير شكل حكومتهم من ملكية الى قنصلية الى امبراطورية الى جمهورية الى امبراطورية الى جمهورية وكانت اضطراباتهم الداخلية هذه معيقة لهم عن السير الى الامام في الاستعمار ولكن مع ذلك فان مملكتهم هي بعد المملكة الانكليزية اوفر الممالك الاوربية استعماراً وثروتهم ربما عادلت ثروة الانكليز

---

## الفصل العاشر

### نظرة في السياسة المدنية الاسلامية

رأينا عرضاً في السياسة المدنية « Economie politique » ان اوروبا لم تفطن لهذا الامر الذي هو من أركان المدنية الحقيقية الا منذ الجيل السادس عشر أي بعد مولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتسعماية عام ونيف وكان اشتغالهم بهذا الامر وتطبيقهم له على العمل مبدأ عهد الاوربيين بمدنيتهم الحاضرة التي قاموا يفتخرون بها على الشرق عموماً والاسلام خصوصاً

وكانوا قبل هذا العهد لا يرون في السياسة المدنية رأياً صالحاً بل بالعكس يحسبون كل عمل تجاري أو صناعي او زراعي محطاً بالشرف والمجد وفيه المذلة

والعار وما زالوا يتوسمون في هذا الرأي الاخرق الى ان أبى أشراف الناس واغنياؤهم معاطاة التجارة والزراعة والصناعة مبقين ذلك لفقراء الناس وعامتهم ولما كان لاغنى لهؤلاء عن أموال اولئك الاغنياء كما لا حيلة لهؤلاء يستثمرون بها اموالهم تولد من هـذا وذلك مبدأ الربى الذي حرمته الشريعـة المحمدية السمحاء وحرمته شرائع النصارى واليهود على ما نعلم

ويدلك على شدة اهالي العصور الغابرة من الاوربيـين على من يتنازل من نبلائهم الى التجارة أو الصناعة اوالزراعة ان اغسطس قيصر الرومانيين حكم على نبيل منهم بالاعدام كما مرّ معنا في الفصل السابق ثم حالت الاحوال وانقلبت الايام ووصلنا الى زمن رأينا فيه المدنية الحقة قائمة على استثمار المال والحكومات الاوربية قد اخضعت سياستها الى منافع رعاياها المالية واخذ العلماء يكتبون الكتب الضخمة في علم الاقتصاد وثروة الامة الخ

واجمع العلماء والسـياسيون على ان المدنية الحقيقية لاتـكون مفيـدة للمجتمع البشري الا اذا خدمت الصـناعة والزراعة والتجارة وانمت ثروة البلاد التي بها تتجلى انوار المدنية

كل هذا صحيح لا ريب فيه فهلا يسمح لنا هؤلاء الاوربيون الذين قد جزموا جهلا بان لامدنية في الاسلام ان نرجع بهم الى اجيال الاسـلام الاولى ونريهم كيف كانت مدنية المسلمـين وطيدة العرى قائمة على الدعائم الثابتة التي لاتتزعزع واهمها المدنية السياسية فان نبينا صلى الله عليه وسلم وهو اشرف اشراف قريش كان تاجراً قبل عهده بالنبوة وكذلك كان الحال في اصحابه رضوان الله عليهم قبل الاسلام في ذلك الوقت الذي كان يحسب فيه اشراف روميـة التجارة وكل مسعى شريف في سبيل تحصيل المال حطة

للشريف كان فيه اشراف العرب تجاراً ويفتخرون بتجارتهم

ثم لما اشتغل نبينا واصحابه وانصاره بامر هذه الامة وسادوا البلاد العربية جعلوا يؤيدون التجارة ويسهلون لهم طرق المواصلات ويؤمنون القوافل السائرة للاتجار وفوق ذلك فان اصحاب رسول الله ما كانوا يتأخرون وهم قائمون باذاعة كلمة الله في العالمين عن الاشتغال بما يكسبون به رزقهم ورزق العيال حتى لا يكونوا كلاً على عواتق المسلمين يدلك على ذلك ما جاء في التاريخ عن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه فانه بعد ان افضى اليه الامر وبايعه المسلمون جمع وجوه اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقال لهم ما ترون لي من هذا المال (أي مال المسلمين او هو مال الحكومة بعرف اهل هذا العصر) قال الامام عمر رضي الله عنه انا والله اخبرك مالك منه اما ما كان لك من ولد قد بان عنك وملك امره فسهمه كرجل من المسلمين واما ما كان من عيالك وضعفة اهلك فتقوت منه بالمعروف وقوت اهلك فقال يا عمر اني لأخشى ان لا يحل لي ان أطعم عيالي من فيء المسلمين فقال عمر يا خليفة رسول الله انك قد شغلت بهذا الامر عن ان تكسب لعيالك فيجب ان تعيش مع عيالك مما للامة من مال ومتاع

ويظهر لك من هذا ان أركان المسلمين في صدر الاسلام كانوا يشتغلون لقوت عيالهم ولا يسمحون لانفسهم باموال المسلمين وقد روي مثل ذلك عن سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا علي بن ابى طالب رضي الله عنهما فمثل هؤلاء الاشراف الذين ضحوا نفوسهم في سبيل الاسلام والمسلمين كيف لم يردوا حياة رجالاً في الاشتغال كاحاد الناس ؟؟؟ اذا كان ذلك لرغبتهم في ان يكونوا مثالاً صالحاً لمن سيجيء بعدهم من الملوك والامراء والوزراء والعمال

وعن مبدأ شريف سامي مجيد هو مبدأ السياسة المدنية الذي تفتخر به اوربا اليوم على المسلمين

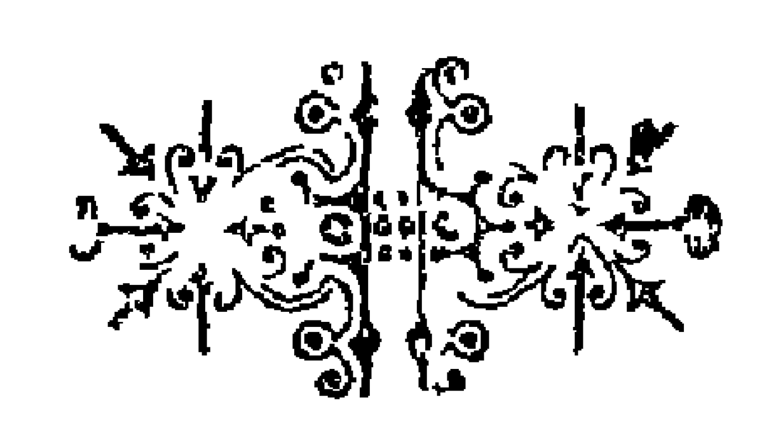
ولما اتسع نطاق الاسلام وخضعت لراية المسلمين بلاد الروم وفارس على عهد سيدنا عمر بن الخطاب رأى بحكمته السامية ان المسلمين قليلون بنسبة البلاد التي افتتحت وان راية الاسلام فى حاجة اليهم للجهاد في سبيل الفتح فحرم عليهم الصناعة والزراعة والتجارة مخافة ان يشتغلوا بها دون الفتح وجعل بيت المال الذي اوجده وقتئذ وكانت موارده من الغنائم والجزية كافلا للانفاق على المسلمين وعيالهم ومماليكهم وعبدانهم وجعل في الوقت نفسه يؤيد اهل الذمة في تجارتهم وصناعتهم وزراعتهم ويساعدهم على تنمية ثرواتهم لتكون سببا لرفاههم ورفاه المسلمين فتأمل كنه هذه الحكمة السياسية المدنية السامية التي اهتدى اليها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما استفاده من حكمة القرآن الشريف وقد غفل عنها الاوربيون الى القرن السادس عشر المسيحي

ثم لما كثر عداد المسلمين وكانوا يدخلون في دين الله افواجاً أخذ المسلمون يجمعون الاموال ويقتنون الضياع وقد ابتدأ ذلك من عهد الامام عثمان رضي الله عنه فانه جعل يخصّ اهله من الغنائم بأكثر من سائر المسلمين. وكان معاوية عامل الخلافة على الشام واكثر ابطال المسلمين دهاء اول من سمح للمسلمين بعد موت الامام عمر بالزراعة واتخاذ الضياع وغير ذلك ثم اقتدى بمعاوية غيره من العمال بضرورة الحال وهكذا صار المسلمون يشتغلون بالاثراء ويعملون حسب مبدأ السياسة المدنية بكل معانيها

ثم تحول همّ المسلمين للتجارة والصناعة والزراعة وكان التجار ينقلون من

ديار الى ديار لبيع ومشترى السلع والصناع يأتون بابدع وابرع الصناعات على ماهو محفوظ حتى الآن في المتاحف من صناعاتهم النفيسة والزراع يستنبتون الارض كل انواع المزروعات مما قلّ ان يوجد مثله في الزراعة الاوربية حينئذٍ وهكذا سبق المسلمون الاوربيين بالسياسة المدنية او في الاقتصاد السياسي وبلغوا من الثروة في ذلك العصر مايعادل ثروة الاوربيين في هذه الايام بالكيفية لا بالكمية لان نمو الثروة الحاضرة على الشكل الذي نراها فيه الآن خاضع لكثرة الذهب الذي اوجدته المناجم في هذا الزمن الاخير وهذا المبحث اقتصادي محض لا حاجة الى الجولان فيه بأكثر من هذه الاشارة في هذا المكان

والذي امتاز به تجار المسلمين دون سواهم هو انهم كانوا مع معاطاتهم تجاراتهم في ضربهم بعرض البلاد وطولها كانوا يبشرون بكلمة الله ورسالة رسوله صلى الله عليه وسلم ويذيعون القرآن الشريف وما وجود هؤلاء المسلمين في بعيد الامصار الا من نتائج تلك المساعي المحمودة والسجايا المنشودة فكانوا على هذا تجاراً وكانوا مبشرين وافادوا المدنية كثيراً كما افادوا اهل هذا الدين فرحم الله اباءنا الامجاد والهمنا نحن ابناؤهم واحفادهم سبل الرشاد والسداد والهداية



# الفصل الحادي عشر

## في نشأة النصرانية الاولى

اتضح للقاري الكريم من الفصول السابقة مجمل حالة الامم التي كانت متمدنة وراقية على قدر الامكان قبل عهد مولد سيدنا عيسى عليه السلام وفي حال مولده الذي كان في اليهودية في قرية تدعى بيت لحم وكان مولده عليه السلام في اواخر ايام هيرودس الكبير ملك اليهودية الذي مات بعد هذا التاريخ بسنتين تخلفه اولاده على اليهودية حيث قسمها الامبراطور بينهم ثم لم يمض على ذلك بضع سنين حتى تلاشى حكم اولاد هيرودس واصبحت اليهودية كغيرها من الولايات الرومانية ولاية يحكمها وال من قبل قيصر الرومانيين

وكما كانت اليهودية مضطربة الاحوال على عهد هيرودس الكبير الذي دام ملكه مدة اربعين عاماً كذلك كانت اسوأ حالاً في عهد اولاده في السنوات القليلة التي حكموا فيها اليهودية وكذلك كانت حالة اليهودية على عهد الولاة الرومانيين مضطربة جداً وكانت الامبراطورية في رومية كثيرة الاهتمام بامر هؤلاء اليهود الذين كانوا يستسهلون جداً اهراق الدماء الذكية وكانوا يحسبون ذلك من واجباتهم المقدسة التي يقضي عليهم بها الدين لانهم كانوا يرون ان مثلهم وهم الشعب اليهودي الراقي المتفرد بمعرفة الاله الخالق والمحفوظة انساب افراده في السجلات المخصوصة في هيكل سيدنا سليمان عليه السلام نعم كانوا يرون ان مثل هذا الشعب اليهودي الراقي لا يليق به ان يخضع لملك لا هو ابن دينه ولا هو ابن جنسه بل كان عندهم الموت والهلاك اهون من هذا الخضوع وما كان ذلك لانفتهم وترفعهم عن غيرهم من الامم

فقط بل طوعاً لدينهم الذي كان ينهيهم عن الخضوع لمن ليس منهم وفيهم ديناً ونسباً على ما هو صريح في التوراة بمواضع متفرقة

وكان اكثر سكان اليهودية من الشعب اليهودي وقلما كان يرغب الاجنبي عنهم بمجاورتهم لتعذر الاختلاط معهم ولشدتهم وقسوة قلوبهم وغلاظة اكبادهم (على ما يقول الانجيل) ونفورهم من كل غريب عن دينهم وقومهم واحتقارهم له لنجاسته (على ما جاء في التوراة)

ولما كانت اليهودية واقعة بين مصر وسوريا وكلتاهما من املاك الامبراطورية الرومانية كان يهم الحكام في رومية العظمى ان تكون الراحة مستتبة في هذه المقاطعة وان يكون السلام مخيماً عليها تسهيلا للمواصلات التجارية والحربية ولهذا كانت الظروف السياسية تضطر الرومانيين لامتلاك هذه المقاطعة والبقاء فيها الى ما شاء الله .

على ان الرومانيين ما كانوا يهتدون الى وسيلة فعالة يقضون بها القضاء المبرم على القلاقل والفتن التي كانت تظهر حيناً بعد حين في بيت المقدس وما والاها من المدن والقرى التي كان يسكنها اليهود وكانت تدعى باسم اليهودية

ومع ان حكم بلاد آل اسرائيل كان بايدي الرومانيين وكان لهم قوة عسكرية كبرى محتلة هذه المقاطعة بخيلها واسلحتها ومع ذلك كان لحاخامي اليهود وزعمائهم سطوة كبرى وكلمة مسموعة عند الحكومة وعند الاهلين وربما كان اكثر الفتن التي تحدث برأيهم وتدبيرهم ولا سيما عند ما يرون اقل عمل قد صدر عن الرومانيين وتوهموا ان له مساس بمعتقد لهم او بعادة من عوائدهم حتى انهم كانوا يعتبرون من الاهانة لدينهم رفع علم الحكومة الرومانية وعليه النسر الروماني اوشارة هذه الدولة المعروفة في مدائنهم وبلادهم وعلى

الاخص في اورشليم المقامة بالقرب من جبل موريا المقدس الذي كلم فيه الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام والتي كان فيها هيكل سيدنا سليمان الشهير الباقي الآن قسم من سوره والذي بني في موضعه المسجد الاقصى

وكان تعصب اليهود في دينهم وعصبيتهم يفوق حدّ الوصف والتصور وهذا التعصب هو الذي اضاع عليهم ملكهم وهو الذي حال دون نموهم لعدم رغبة الناس بالدخول في دينهم مع انهم كانوا دون سواهم من الامم والشعوب يعبدون الله الواحد الاحد وكل من عداهم من الامم كانوا يعبدون الانصاب والتماثيل . ولعدم رغبة اليهود انفسهم بالاختلاط مع غيرهم لتمسكهم بانسابهم واعتقادهم ان الشرف منحصر باصلابهم ولا يتعداهم الى سواهم

في هذه البيئة وفي حالة اليهودية المضطربة هذه ولد سيدنا عيسى عليه السلام في قرية تدعى « بيت لحم » وكان والداه من سكان مدينة الناصرة المعروفة الان بهذا الاسم والتي انتسب النصارى اليها فيما بعد وقد نشأ عليه السلام فيها وظلّ هناك بعناية والديه الى ان بلغ الثانية عشرة من عمره حيث جاء الى اورشليم ثم لا يعرف احد اين سار وكيف اتجه لان الانجيل لا يذكر ذلك واختلف العلماء وكبار المؤرخين في ظنونهم فمنهم من قال انه عليه السلام قد سار بعد ظهوره في اورشليم الى الهند صحبة احدى القوافل الهندية ومنهم من قال انه سار الى رومية وعلماء النصارى الدينيون يقولون بل انه رجع الى بيت ابيه في الناصرة وكان يتعاطى صنعة ابيه يوسف النجار وهي النجارة في دكانه ولكلّ من اصحاب هذه الآراء ابحاث وبراهين لا يهمنا ذكرها ولا هي من مباحث مثل هذا الكتاب

ذكر الانجيل سيدنا عيسى وهو ابن اثني عشر سنة وقال انه دخل

هيكل سيدنا سليمان عليه السلام وهو غلام واخذ يجادل الكهنة والحاخامين ويعظهم ويعلمهم ثم سكت عنه ثم عاد الى ذكره وهو ابن ثلاثين عاماً حيث ابتدأت رسالته عليه السلام واخذ يعلم ويبشر ويعظ ويأتي بالخوارق والمعجزات ولما رأى عليه السلام في قومه هذا التعصب وتلك الغلظة ومايتبع ذلك من الشدة حسن له على مايظهر ان ينهض بهم ويبين لهم المحجة الواجب ان يسلكوها فتؤدي بهم الى الرقي والعمران وهذه خلاصة تعاليمه الدينية التي جاء بها السيد الحاجة

اولاً انه عليه السلام رأى قومه اليهود على ضعفهم شديدي التعصب ضد الرومانيين وهم يحسبون ان مقاومتهم لكل ذي سلطة عليهم وهي اجنبية عن دينهم وجنسيتهم فرضاً دينياً ففرق بين الدين والسياسة وجعل كلاًّ منهما بمعزل عن الآخر توصلاً لراحة اليهودية لان بلا راحة لا يتم الرقي ولا تزهر الحضارة والمدنية

ثانياً رآهم حتى كهنتهم وحاخاميهم منهمكين في جمع المال من اي سبيل كان انهما كاً مخجلاً معيباً فجعل عليه السلام يندد بالاغنياء ومكتنزي الاموال ويعظهم بوجوب توزيع اموالهم على الفقراء والمحتاجين

ثالثاً رأى فئة الفقراء محتقرة مهانة فمال اليها وعزز كلمتها واختلط بها وفضلها على فئة الاغنياء الاشحاء ووضع بذلك اساسات الاشتراكية

رابعاً رأى الحقد متأصلاً في نفوس القوم فرأى عليه السلام ان من الواجب تلطيف هذه الوصمة فرفع مقام الحلم والسماح وامر بالعفو والغفران واكبر جريمة من تغرب الشمس عليه وهو حانق على اخيه في الانسانية

خامساً رأى قومه قد افرطوا بانانيتهم بحيث لا يساعد احدهم الآخر

ولو رآه مشرفاً على الهلاك فامر عليه السلام بوجوب التعاضد والتعاون في الاعمال بلا اجرولا اجرةوامر مريديه بقولهمن سخرك ميلاً امش معهميلين

واشرف ما اوصى به سيدنا عيسى عليه السلام هو المحبة وما زال يعظ ويكرز ويعلم في المحبة حتى قال انها الناموس والانبياء . وكانت اوامره في المحبة شديدة الى درجة ان يحب الانسان عدوه ويصفو لمبغضه وموصل الاذى اليه وهو مبدأ لعمر الحق من اشرف المبادي واسماها لان على المحبة قيام كل شيء وفي المحبة نهضة كل شيء ومن المحبة يتم الخير العميم لكل شيء

ففي حب الانسان لخالقه سعادة له في الآخرة وسعادة له في الدنيا لانه يأتمر باوامره وينتهي بنواهيه وما وجدت الا لخيره وفي حب الانسان لاخيه الانسان يسود السلام في العالم وتنتفي الخصومات والمنازعات وفي حب الانسان لعدوه فضيلة ما بعدها من فضيلة تسلم فيها الانسانية من الشرور والمصائب كل هذا بديهي ويسلم به العقل ولكن هل ممكن للانسان ان يحب عدوه وموصل الاذى اليه ؟؟؟ وهل وجد في الدنيا مثل هذا الانسان الصالح؟؟؟

ونرى مثل هذا كثيراً في الانجيل مما وضع تلطيفاً لقوم قد اسرفوا في شدتهم فكان ملائماً للزمان والمكان الذي وجد عليه السلام فيهما ولكن وضع هذه التعاليم في صيغتها الاجبارية في مثل هذه الشدة كان تفريطاً يقابل ذلك الافراط الذي كان في اخلاق اليهود ولذلك لم يقبل على النصرانية في بدء نشأتها غير الفقراء والمعوزين واهل الطبقة الدنيا وكانوا يعيشون معيشة اشتراكية محضاً فيقدم كل منهم ما يجمعه من المال بكده وحده الى الشمامسة ويأتون بعيالهم في كل مساء الى مكان اعد لهم ويتناولون طعام المساء سوية بحفلة مفرحة لمثل هؤلاء التعساء

ثم قد رووا عن بعض الاغنياء والغنيات انهم قد دخلوا في النصرانية في ذلك العهد وتنازلوا عن كل أموالهم ومقتنياتهم للكنيسة وجعلوا قصورهم مجتمعات للصلاة ولكن مؤرخو النصرانية أنفسهم يجعلون لهؤلاء المتنصرين أسباباً حملتهم على ذلك كأن يكون أحدهم مريضاً فيشفى بصلاة أو غير ذلك من الاسباب

## الفصل الثاني عشر

### في اضطهاد النصرانية

نشأت النصرانية في أورشليم المقدسة (بيت المقدس) ثم امتدت الى انطاكية وكانت وقتئذ أعظم مدن سوريا ثم امتدت الى القطر المصري ثم الى رومية العظمى عاصمة الامبراطورية الرومانية وهكذا ذاعت في أكثر العالم الذي كان معروفاً وقتئذ

وكان النصارى قد جعلوا دينهم سراً مصوناً كالماسونية الآن فيحذرون على من كان ليس منهم الوقوف على عباداتهم واعتقاداتهم وكانوا يتعارفون باشارة مخصوصة بيمناهم تتنقل بين الوجه والصدرة والكتفين ويسمونها (اشارة الصليب) ولا نعلم ماالذي حملهم في بدء عهدهم على جعل دينهم سراً مصوناً عن الناس ولكن الذي نعلمه هو ان تكتمهم في دينهم وآدابه كان يلقي الريبة في نفوس الناس فيتهمونهم اشنع التهم ويشيعون عنهم اقبح الاخبار ويرمونهم بكل وصمة من العار فقالوا عنهم انهم يذبحون الاطفال وقالوا عنهم انهم عبارة عن زمرة لصوص وقطاع طرق وقالوا عنهم غير ذلك وكان اشنع مارميوا

به أنهم اعداء القياصرة امبراطرة رومية العظمى وحكام المملكة وانهم لا يخضعون لسلطانهم ولا يسجدون لاوثانهم

وقد تمسك امبراطرة رومية بهذه التهمة وحسبوها حقيقية واضطهدوا النصرانية في رومية وفي اطراف المملكة فقتلوا منهم خلقا كثيراً واستحلوا اموالهم وبالغوا في تحقيرهم واهانتهم وكان النصارى يعتبرون كل هذه الاحن والمصائب قرباناً يتقربون به الى الله وإن الذي يموت لاجل دينه يعدّ شهيداً وجندياً لسيدنا عيسى عليه السلام ولذلك كان افرادهم يقبلون على الاستشهاد بجهاد غريب عجيب مدهش وقلّ من كان ينثني عن الاستشهاد من ضعاف العزائم والهمم وكانت جرائتهم هذه تحير الباب الحكام

والذي نعتقده هو ان تكتم النصرانية هو الذي جرّ عليها هذا البلاء والاضطهاد وان النصارى لو افصحوا عن معتقداتهم وعباداتهم لما لقوا مثل هذا العذاب الاليم والنكبات الشتى لان ليس في دينهم مايوجب المظنة والارتياب ويدعو الى ذلك الالم والعذاب

على ان النصارى المتخفين في ديماميسهم ومغرهم في مدى الثلاثمائة سنة الاولى لتاريخهم لم يكن لهم مدنية خصيصة بهم ولم يشتغلوا بالعلوم والاداب بل كانوا منعكفين على العبادة والصلاح والعمل الآخرة دون الدنيا وكان يدعوهم الى ذلك جملة اسباب اولها مباديهم الدينية التي تجعلهم متجردين بتاتاً عن العالميات قانطين من هذه الحياة طامعين في الخلود ثانياً ان أكثر الذين كانوا يدخلون النصرانية في ذلك العهد كانوا من العامة وما دخلوها الا حباً بالمعيشة الاشتراكية والاقتناع بكفاف العيش حتى كان الوثنيون يدعون النصرانية في ذلك الحين « دين الفقراء » وكان هؤلاء الفقراء لا يهمهم الا

الصلاة والعبادة ثالثا ما كانت النصرانية تخلو من افراد اهل نبالة وثروة كما قلنا على ان هؤلاء الشرفاء الاغنياء كانوا يقبلون على النصرانية طمعاً في الآخرة بعد ان راؤا عياناً من المعجزات على مايروي المؤرخون فيتقشفون في معايشهم ويهبون أموالهم للفقراء والمساكين خضوعاً لاوامر سيدنا عيسى الصريحة فيصبحون بعد ذلك مساوين للفقراء . الى غير ذلك من الاسباب التي جعلت النصرانية في الثلاث قرون الاولى بلا تأثير على المدنية الرومانية بتاتاً

## الفصل الثالث عشر

### في ظهور النصرانية

بعد ان كان المسيحيون في مدى ثلاثمائة عاماً في الاضطهادات الشتى ولاقوا من الاهوال في سبيل دينهم ما لاقوا اتيح لهم الفرج بعد الضيق على يد قسطنطين الملك الروماني الذي ظهر في اوائل القرن الرابع المسيحي ومن اعجب العجائب ان هذا الدين الذي تفرد عن كل الاديان التي ظهرت في الوجود الهية كانت او من وضع البشر بانفصاله عن السياسة قد عاد فالتصق بالسياسة واصبح ركناً ركيناً لها

كان قسطنطين الملك صاحب حزم ودهاء وسياسة وذكاء فرأى اذ تربع على تخت الامبراطورية الرومانية اولاً ان المسيحية قد تغلغلت في مجتمع الامبراطورية الرومانية وتجاوزت الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا بحيث صار من الصعب او بالاحرى من المستحيل استئصال شأفتها من البلاد بل بالعكس اصبحت خطراً اكيداً على الهيأة الحاكمة ثانياً ان المظالم والمغارم التي تمت

على ايدي سلفائه قد نفرت الشعب من حكمهم فما عادوا مخلصين للعرش الامبراطوري ثالثاً ان امراء رومية وعظماءها قد استبدوا في الامر وتوسعوا في اختصاصاتهم بحيث صار الامبراطور لعبة بين ايديهم لا يأتي عملاً الا بارشادهم وبعد ان اعمل الفكرة في هذا كله رأى ان الاسلم للامبراطورية والاحسن لمستقبلها اولاً ان ينصف المسيحيين ويستميلهم اليه ثانياً ان يترك رومية العظمى ويختار غيرها من المدن عاصمة للملكه وبالفعل ترك رومية ام المدائن وسار الى بزانطيه على البوسفور واستعمرها ودعاها باسم رومية الجديدة وجعلها عاصمة للملكه واصدر امراً عالياً باعطاء الحرية الدينية لكل المذاهب التي في امبراطوريته وفيها المسيحية وعلى اثر هذا المنشور خرج المسيحيون من ظلمات دياميسهم ومغرهم وشادوا الكنائس العظمى ونالوا كل حريتهم وصاروا يواصلون بعضهم بعضاً واخذ قسطنطين الملك يناصر النصرانية واتخذ من النصارى جيوشه وقواده فجعلوا يقاتلون معه مستميتين لانه واهبهم العتق والحرية ففتح بهم البلاد الشرقية وعظم بهم شأنه في الخافقين

وكان النصارى قبل هذا العهد قليلي الاتصال مع بعضهم وكانوا مختلفي الاراء في معتقداتهم وعوائدهم الطقسية وكانت كل فئة منهم تفهم الانجيل على ما تصل اليه مدارك زعمائها وعلمائها وعقلائها وتقيم فروض الصلاة على مايلائم اذواقها وعوائدها فلما نالت الحرية على عهد قسطنطين الذي دخل في النصرانية فيما بعد طمعت كنيسة بزانطيه ان تسود على كل كنائس النصرانية وتحملها على الاعتقاد بمعتقداتها والصلاة حسب طقوسها وايد هذه الفكرة قسطنطين الملك نفسه لملاءمتها لمصلحته وقامت على اثر ذلك الحروب الدينية بين النصارى فانتقلت النصرانية من اضطهاد الوثنيين الى مقاومة بعضها بعضاً وحكمت

السيوف في اهل هذا الدين الذي بني على اساس المحبة والسلام وكانت الفئة الملكية اي المتحدة مع كنيسة القسطنطينية وهي ذات الحول والطول تضطهد كل من خالفها بحرمانه من الكنيسة وبسفك دمه واضاعة ماله الخ الخ وهكذا قضى المسيحيون قريب من ثلاثة قرون في هذه الحياة المضطربة وهم الذين لا يجوز للشمس ان تغرب عن ابصارهم وهم حاقدون ليس على اخوانهم في الدين فقط بل على اعدائهم ايضاً

هذا ما كان في الشرق حيث مهد المدنية والعمران وكان مسيحيو مصر وسوريا وما بين النهرين وما جاور هذه البلاد كلهم او اكثرهم مخالفي الكنيسة القسطنطينية بالرغم عن خضوعهم لسلطة امبراطوري هذه المدينة أما في الغرب فكان غير ذلك فان قسطنطين لم يكد ينزح عن رومية العظمى حتى تناول الحكم اشراف رومية وظهر اسقف هذه المدينة باسمى مظاهر البأس والشدة فقبض على القلوب والعقول بيد من حديد وسيرها على ما يريد وساعده على ذلك الجهل الذي كان سائداً وقتئذ على الاوربيين فلم يظهر عندهم ما ظهر في الشرق من هذه الاختلافات الدينية الكبرى بل كانوا من ملوك وامراء وقواد وعظماء واغنياء وفقراء خاضعين لهذا الاسقف الذي يسمونه بالبابا خضوعاً اعمى وما زال يستبد عليهم حتى تناول زمام الاحكام واصبح ملكا زمنياً وهذا اغرب ما حدث في تاريخ النصرانية ما لم يفكر به سيدنا عيسى عليه السلام الذي كان يقول لتلاميذه ان مملكته ليست من هذا العالم وان من يريد ان يكون فيهم اولا فليكن للكل خادماً الى آخر ما هو واضح في الانجيل باجلى بيان

وكان هؤلاء البابوات اساقفة رومية يحاربون العلم والعلماء تأييداً

لسلطانهم الذي لا يمكن ان يجوز الا على الجهلاء اهل الجهل فوقف في وجه الاوربيين وحال بينهم وبين المدنية باضطهاد كلّ ذي فكر حرّ ومناهضته وما زال يحرّم على المسيحيين تلاوة الكتب الراقية حتى حظر عليهم تلاوة الانجيل نفسه بدعوى ان الشعب لا يجوز ان يسمع الانجيل الا من فم الرهبان والقسيسين الذين يقوون على فهمه دون سواهم فتأمل...ولقد اعاد البابا وات في حصرهم العلم بصدور الرهبان عادة كهنـة المصريين الذين كانوا يجعلون العلم سراً من اسرارهم لا يبوحون به لاجنبي عنهم

ويرى القارئ الكريم من مجمل ما تقدم ان النصرانيـة في الثلاثمائة سنة التي ظهرت فيها باجلى مظاهرها في الشرق والغرب وكانت السلطـة المدنية في قبضتها ليس فقط لم تخدم المدنية وتؤيدها وتجلو مظاهرها بل بالعكس كانت تحارب المدنيـة بكل قواها ففي الشرق كان علماء النصارى وعقلاؤهم يشتغلون بوضع المؤلفات الدينية ضد بعضهم بعضاً واكثرها جدلية سفسطية وكانت كثيراً ما تدخل السلطة الزمنية بين المتجادلين فتؤيد مذهب ضد مذهب ولا تلبث ان تعمل حدّ السيف برقاب مخالفيها ولسان حالها يقول

السيف اصدق انباءً من الكتب ... في حده الحدّ بين الجدّ واللعب

وفي الغرب كانت المدنية كلها عبارة عن خضوع اعمى للباباوات وعمالهم من الاساقفة و لرهبان والقسيسين الذين كانوا يضغطون على الرعية ويسيرونها على ما يشتهون ويستخدمونها لاغراضهم واهوائهم كانهم كانوا عبيداً مسخرين لخدمة الدين

واذا كانت الاعمال بنتائجها والنتائج ترجع الى مقدماتها كان النصارى حتى الجيل السادس الذي بزغت فيه انوار الاسلام هادمة للمدنية والعمران عاملة على الخراب والدمار في جميع المالك والبلدان

# الفصل الرابع عشر

## في المدنية العربية القديمة

لم تكن المدنية العربية أقلّ من غيرها من المدنيات القديمة كلا ولكن عاديات الدهر عدت عليها لاسباب مكانية وزمانية لامحيص عنها فتهدمت مدنيتها الى ان ظهر الاسلام فجعلها مناراً لمدنية العالم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

والباحث المدقق يحكم بعد التروي والامعان بان واضع أساسات المدنية والحضارة في البلاد العربية هو عامل الهي. فان الكعبة كرمها الله وجدت من تاريخ يتناهى بالقدم الى عهد بدء الخليقة وهي موضع اجلال واحترام كل العربيين ومن قدميتها نستدل استدلالاً صريحاً على ان هذا المقام المقدس قد أقيم بأمر الهي لعبادة الله عزّ وجلّ وعلا وانه ما تحول لعبادة الاوثان الا بعد ان فسدت على العرب مدنيتهم وساد عليهم الجهل كما جرى لغيرهم من الامم والشعوب والدهر دولات يداولها الله بين الناس

من الثابت ان الكعبة المكرمة وجدت حجاً للناس من أقدم أيام الجاهلية وكان يسعى اليها الناس للعبادة والاستغفار من كل صوب وحدب وقد جعلوها حرماً محترماً فلا ينال الذين يأوون اليها أذى ولا ضرر ولا ولا

ومن البديهيات ان الاجتماعات العمومية التي كانت تقام في مكة المكرمة من أجيال الامم العربية وغيرها كانت تفيدهم شتى الفوائد ما لا يكاد يدخل تحت الحصر فاذا نظرنا الى ذلك بعين الروية والاعتبار وحكمنا بعد ذلك بان العربان الكرام كانوا أصحاب مدنية قديمة لا نكون قد كلنا القول جزافاً

وأتينا بالمدهش الغريب فتأمل ....

ومن المعروف أيضاً ان الكعبة كرمها الله وجدت قبل عهد سيدنا ابراهيم حجاً للناس وان الملائكة هم الذين بنوها موضماً للمغفرة بعد ان كفر سيدنا آدم بنعم الله وأكل من تلك الشجرة المنهي عنها بتغرير سيدتنا حواء عليهما السلام وكانا يحجان اليها ويطوفان من حول الحجر الاسود على ماهو مبين في مواضعه من التاريخ ولا يسلم العقل ان تكون الكعبة قد وجدت في أرض لا حضارة فيها ولا مدنية بل ولا بدّ ان وجودها كان وسيلة لنمو الحضارة والمدنية في تلك الفيافي والقفار

ومن المعقول أيضاً ان سيدنا ابراهيم وسيدنا اسحق عليهما السلام لم يجددا بناء الكعبة المكرمة فقط بل لابدّ ان يكونا قد وضعا لهذه الامم التي كانت منتشرة في تلك الارجاء شرائع وقوانين على عادة الرسل والانبياء ثم فقدت هذه الشرائع والقوانين معما فقد من آثار المدنية العربية

ولقد أشار نبينا صلى الله عليه وسلم الى المدنية العربية القديمة في كثير من احاديثه الشريفة منها مارواه المحدثون الثقاة ان نبينا صلى الله عليه وسلم لما مرّ مع اصحابه على مساكن قوم ثمود قال مخاطباً من معه « لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا وأنتم باكون ان يصيبكم ماأصاب هؤلاء القوم » والذي يقرأ هذا الحديث الشريف بامعان وأعمال روية يستطيع ان يتصور ماكان عليه قوم ثمود من المدنية والحضارة والمجد والثروة والحياة وانما قداندثرت آثارهم ودالت دولتهم عند ماظلموا أنفسهم باتباعهم الترف وما ينجم عنه من الاخلاق المنحطة على ماهو مشاهد في كل اجيال البشر وممالكهم

ولا يخلو كتاب الله الشريف من ذكر الامم العربية ومدنيتها الدائرة

وفي الاشارة الى ماحاق بها من الخراب والدمار دلالة واضحة على ماكانت عليه من التمدن والعمار حيث لايخرب الا العامر ولا يندثر الا الموجود وما ذكر القرآن الشريف هذه الامم الداثرة الا لشهرتها الذائعة التي كانت تجري على ألسن القوم حتى ظهور نبينا صلى الله عليه وسلم

وأشهر مملكة عربية اتصل بنا انباؤها هي المملكة الحميرية التي كانت في اليمن وملوكها التبابعة الحميريون مشهورون في التاريخ القديم شهرة أكاسرة الفرس وفراعنة المصريين

والامة الحميرية تنتمي الى حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وحمير هذا هو جد الملوك الحميريين وبه تسمى كل عرب اليمن الاولون الذين اتصل منهم جماعة صنهاجة وكتامة الى البلاد المغربية واقاموا فيها ايام غزاها افريقشر احد ملوك حمير والذي مرّ في طريقه ببقايا الجبابرة الكنعانيين الذين حاربهم يشوع بن نون وافريقشر هذا هو الذي سمى اهل المغرب (مراكش وتونس والجزائر) عند ما دخل بلادهم باسم البرابرة لانه اذ سمعهم يتكلمون بلغتهم قال ماا كثر بربرتهم

ونرى ان حمير هذا هو ابن حفيد يعرب الذي هو جد العرب الاكبر وثابت من سيره الى بلاد المغاربة لطريق الكنعانيين انه كان قبل عهد سيدنا موسى عليه السلام بعدة مديدة ولا بدّ انه ماتغلب على الكنعانيين وأهالي المغرب الا لانه كان اكثر منهم قوة واستعداداً وعلى هذا تكون مدنية العرب القديمة معاصرة لمدنية الفرس والمصريين والاشوريين ومن الضرورة ان يكون عندهم ما كان عند غيرهم من الشرائع والآداب لان التبابعة وهم اشهر ملوك العرب كانوا ذوو سلطان وكان لهم فتوحات عظمى ذات شأن

ثم ان الاثريين حتى الساعة لم يحصلوا على آثار ثمينة للحميريين تكشف عن ماضي تاريخهم الستار الا ان هذا القليل الذي اكتشفوه مع ما لهم في التوراة والقرآن من الذكر العاطر والاثر الباهر لما يترك للبلاد العربية من الفخار ما ترك التاريخ لغيرها من قديم المدن والامصار

ويظهر من مجمل ما بقي لنا من انباء الجاهلية العربية ان العرب كانوا أهل فصاحة وذكاء ومعارف وآداب ولكن بما ان طبيعة بلادهم الجرداء كانت تحوجهم الى طلب الكلاء والمرعى لمواشيهم وهي مورد معايشهم كان من الضروري ان تكثر بينهم الحروب والمغازي ولذلك انصرف اكثرهم للشعر الذي كانوا يتفاخرون بانشاده ويعاونهم على تشجيع النفوس الخائرة العزائم بترديده ولذلك كانوا فصحاء خطباء شعراء اكثر منهم فلاسفة وعلماء وكانوا يضمنون مباديهم الفلسفية في اشعارهم مما باد واندثر ولو بقي لكان عبرة لمن اعتبر

---

## الفصل الخامس عشر

### في الحكمة الالهية باختيار العرب للهداية الى الدين الحق

نعتقد نحن معاشر المسلمين ان نبينا صلى الله عليه وسلم قد جاء بالآيات البينات من عند الله تعالى هدى للعالمين ونرى ان الحكمة الالهية قد اختارت الامة العربية للقيام بهذه الهداية للياقتها الى هذا العمل المقدس الكبير واستعداد اهلها له

ولا يصعب علينا ان نستلفت انظار الغير مسلمين الى هذه الحقيقة

الراهنة والحقيقة بنت البحث حيث تجلى بازهى مظاهرها للباحثين فاذا شاء القاريء الكريم الوقوف على اسباب هذه الحكمة الالهية التي خصت الامة العربية دون غيرها لانبثاق نور الهداية بعد ان ساد ظلام الضلال على العالمين فليسر بنا في عالم الخيال ولنرجع الى هاتيك الاجيال المظلمة ونحلق في فضاء تلك الامم البائدة

كانت الممالك الاوربية في العصر الذي ظهر فيه نبينا صلى الله عليه وسلم غارقة في ظلمات الجهل والهمجية وواقعة تحت سيطرة البابوات المازجة بين الدين والدنيا

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بدء تسلط البابوات فالكاثوليك يقولون ان هذه السلطة ابتدأت منذ الاجيال الاولى المسيحية والبروتسطان يقولون ان هذه السلطة ابتدأت منذ الجيل الرابع المسيحي اي منذ ترك الامبراطور قسطنطين رومية واستعمر بزنطية على البوسفور وسكنها

وسلطة البابوات الدينية هي عبارة عن انهم خلفاء شرعيون للقديس بطرس الرسول ورؤساء الكنيسة المنظورون على الارض وما كاد البابوات ينالون هذه الميزة على بقية قسس الكنائس حتى طمحت انظارهم الى الرئاسة المدنية فجعلوا يتداخلون في السياسة ويستعينون بالشعب الساذج على ملوكه وهكذا عظم شانهم وساد سلطانهم

وكانت وقتئذ الفلسفة والعادات الوثنية شائعة بين القوم فدخل على المسيحية الشيء الكثير منها ممزوجة بالفلسفة والعادات اليهودية هذا في الغرب اما في الشرق فكانت الحروب الدينية قائمة قاعدة على قدم وساق وكان المسيحيون في شغب مستديم وقد توسع شرّ الانقسام بينهم وكثر

فيهم أصحاب المذاهب والنحل وقامت كل فئة منهم تعمل على نكاية غيرها مما لم يكن في الغرب لذلك المهد لان ضغط البابا وات على اهل الغرب وجهل الغربيين مما جعلهم ان يستسلموا الى رؤسائهم فيسيرونهم على ما يشاؤون

وما ظلّ شعب على فطرته خالي الذهن من المشاغب الدينية والسفاسف السفسطائية مستعداً لخدمة الحق والقيام بنصرته غير الشعب العربي على ما نصف لك من أخلاقه فنقول

كان الشعب العربي في ذلك الوسط المحيط به من كل صوب وحدب خالي الذهن من كل علم وفلسفة ولا يعرف من أمر الدين الا ان يضحي الضحايا لانصاب الكعبة كرمها الله تقرباً لله وتزلفاً الى سدنته القدسية

وكان في الشعب العربي بين عبدة الانصاب والاصنام قوم من اليهود وآخرون من النصارى الا ان هؤلاء أيضاً كانوا يجهلون حقائق دينهم كما كانوا يجهلون مايجري في الشعوب الاخرى من المنافسات الدينية وعدا هؤلاء كلهم كان في الكعبة قوم ماهم بنصارى ولا يهود ولا بعبدة أصنام بل كانوا يعبدون الله الواحد الاحد على مذهب سيدنا ابراهيم مسلمين ومن هؤلاء آل عبد المطلب الذي سمى ابنه عبد الله دلالة على عبادتهم لله وهو ابو نبينا صلى الله عليه وسلم وفي هذه التسمية دليل واضح على ان آل الرسول في الجاهلية كانوا يعبدون الله موحدين وقد كان ذلك منهم بعناية الرحمن الرحيم تشريفاً له صلى الله عليه وسلم على قومه الذين كانوا مشركين

وكان العرب عدا خلوّ اذهانهم واستعدادهم لقبول تعليم صحيح جديد يذهب بتوحش الجاهلية ويأتي بأنوار المدنية والعمران كانوا عدا ذلك يمتازون بالصدق والشهامة والحرية والاستقلال والكرم والضيافة وحفظ الزمام

ومراعاة الجوار ومآواة الغريب والحماسة والذكاء والقناعة وهذه الصفات التي
كان يمتاز بها العربيون عمن عداهم بالاجماع كانت تؤهلهم ليكونوا موضع ثقة
الله جلّ وعلا بجعله النبي الهادي الامين صلى الله عليه وسلم منهم وجعلهم
هداة العالمين وناشري الوية المدنية في الخافقين

ولو اننا نكتب للدين لاتينا على الاسباب الملجئة لظهور الاسلام ولكننا
نمسك عنان القلم عن ذلك مكتفين بالقول بان ظهور النبي العربي صلى الله
عليه وسلم في البلاد العربية كان لخير الناس كافة وان كره المتعصبون

---

# الفصل السادس عشر

## في ان النصارى اضاعوا المدنية القديمة

اجمع مؤرخو الثلاث قرون الاولى المسيحية على ان النصارى كانوا
يبذلون كل ما في استطاعتهم لمحو آثار الوثنية رغبة منهم بالتغلب على الوثنيين
فكانوا لا يدخرون وسعاً بتكسير ما كان يصل لايديهم من الاصنام
والانصاب وحرق ما ينتهي الى ايديهم من الكتب الفلسفية والعلمية وغير
ذلك من مخلفات العلماء والكتاب سواء في الدين او في الفلسفة والعلم والادب
هذا ما كانوا يصنعونه وهم خائفون على ارواحهم من اضطهادات المضطهدين
من اهل الوثنية في كل بلد اقاموا فيه ولكن الذي عملوه فيما بعد في
الامبراطورية الرومانية كلها عندما تنصر الامبراطرة الرومانيون وقوي عضد
المسيحيين يفوق بما لا يقاس اعمالهم الاولى في زمن ضعفهم وذلهم حينئذ قاموا
بكل نشاط لملاشاة كل اثر فكري او يدوي من آثار الوثنية فلم يبقوا على هيكل الا

وهدموه وبنوا في محله كنيسة ولم يلقوا تمثالاً او صنماً الا وكسروه ولم يبقوا على رق او كتاب في اي غرض وموضوع كان الا واحرقوه ومزقوه تمزيقاً والغريب في امر المسيحيين في هذا العهد ان قسسهم ورهبانهم قد ضيقوا على المدارك والافهام بمنتهى الشدة بحيث ما كان يجسر منهم من يتظاهر بالعلم اذا كان على شيء منه ولا يوجد من يخالفنا على مانظن اذا قلنا ان النصرانية كانت في هذه الفترة التي هي بين حرية النصرانية وبين ظهور الاسلام واقعة تحت سيطرة رجال الدين يصادرونها في عقول رجالها ويسيطرون على كل شيء لهم حتى على قلوبهم وكانت المقاطعات المنضوية للباباوات في رومية في خضوع اعمى لتعاليم روسائهم مهما كانت لان الاروبيين في ذلك العهد كانوا على درجة من الغباوة مابعدها درجة اما في الشرق فكان اهله على ذكاء ومعرفة ولذلك كان الاضطراب سائداً في نصارى الشرق في كل جهة وعدا عن انهم (اي النصارى) لم يبقوا على اثر علمي اوصناعي من آثار الوثنية. اخذوا بملاشاة الكتابات النصرانية نفسها التي لم تلائم اغراضهم فضاع الشيء الكثير منها

والواقف على تواريخ النصارى لذلك العهد يرى ان الخصومات والقلاقل كانت آخذة مأخذها بينهم فلا يكاد يقع نظره الا على اجتماعات دينية ضد فلان وفلان من علماء القسيسين وما يتبع ذلك عادة من تحزب الاحزاب واثارة الضغائن والاحقاد وضياع مصالح العباد وهدر الدماء الذكية حتى قال احد علماء ذلك العصر « ان النصرانية عبارة عن قلاقل وفتن ومناقشات ومشاحنات فاما ان كتابها يدعوها الى ذلك او انها تركت كتابها وسارت على خطة تخالفه ( وهو الاصح ) »

ولا نبالغ ان قلنا ان حالة النصارى في أوروبا وفي الشرق كانت سيئة

جداً وان المباحث الدينية كانت في ذلك العصر مستغرقة عقول الجميع من علماء وجهلاء يدلك على ذلك مؤلفاتهم التي ابقوها لنا وكلها تحوم حول هذا الموضوع الديني الجدلي فلا تكاد تخرج منه الا لترجع اليه

ولم يقتصر الشرّ على اشتغال الناس بما يضرّ ولا يفيد من تلك الخصومات الدينية بل تمدوا ذلك الى الاعتداء على الكتب والآثار القديمة فمحوها محواً وتوصلوا الى معاقبة من توجد عنده وكان ذلك في اوروبا اكثر منه في الشرق ثم انحى القسم الفائز في الشرق وهو المنتمي لكنيسة القسطنطينية على المخالفين في المذهب وتمكن من محوا اكثر ما كتب ضد الكنيسة الشرقية التي كانوا يسمونها ( الملكية ) بالقوة فضاع منها الشيء الكثير

واجمع النصارى في الوقت نفسه على جعل سيدنا عيسى الهاً وقاموا كلهم مرة واحدة على شيعة آريوس الذي قال ان سيدنا عيسى عليه روح الله وليس باله فشتتوا شملهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ونكبوهم نكبات فظيعة ولم يبقوا لمؤلفات جهابذتهم اثراً ولا خبراً ونحن نروي هذا ولا نتوسع فيه لان كتابنا سياسي وليس بديني وقد الجأنا الى ذكره قول اعداء الاسلام ان الاسلام انتشر بالسيف خلاف المسيحية مع ان الامر بالعكس والمسلمون حاربوا كالملوك ولكنهم لم يجبروا في وقت من الاوقات اهل الكتاب على الاسلام احتراماً لقول الله تعالى « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الاية » خلافاً لملوك النصارى الذين كانوا يعتدون بالسيف على كل من لا يدين بدينهم حتى وعلى كل من يخالفهم في مذهبهم من اهل النصرانية

# الفصل السابع عشر

## في ظهور الاسلام

ظهر الاسلام بانواره المتلالية في البلاد العربية في هذا الوقت الحرج والزمن الصعب الذي كادت ان تتلاشى فيه آثار المدنية والعمران وتندرس معالم العلوم والآداب وتمحي العدالة من الوجود بل في الوقت الذي كان فيه الخراب يهدد العالم باجمعه على أثر استبداد اولئك الملوك المستبدين بعد اتفاقهم مع خونة الكهنة والقسيسين نعم في هذا الوقت ظهر نبينا العربي الامي صلى الله وعليه وسلم معلنا التوحيد عاملاً على استئصال شافة الاشراك والمشركين هادياً الناس الى الصراط السويّ

وكان ظهور نبينا صلى الله عليه وسلم احياءً لموات المدنية وانباتا لغراسها فساد على الكافرين والملحدين بالحق كما ساد على المتعصبين والمكابرين بالسيف واخذ الناس يدخلون في دين الله افواجاً وما هو الا جيل واحد وهو الجيل السابع المسيحي حتى رأينا كلمة « لا اله الا الله » مرفوعة على هضبات وصروح الدول والممالك في الشرق بجملته ومنه امتدّ الى الغرب حيث دخل من طريق البربر الى الاندلس اي اسبانيا وكاد يرتفع لواؤه على اوروبا بجملتها لولا ....... وما قدر يكون

ويتعب اعداء المسلمين كثيراً في نسبة هذا النجاح الباهر الذي توفق اليه المسلمون الى الظروف والصدف او القوة والسيف كما يتشدق المتشدقون ولا اسهل على المؤرخ الباحث من اراحة هؤلاء المتعبين في اكساء الباطل ثوباً يشابه الحقيقة لان التاريخ اعدل شاهد في نظر المحققين والعارفين

انتصر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع زمرة من اصحابه وانصاره رضي الله عليهم على اهالي جزيرة العرب بغزواته المعروفة المشهورة فلو ان الحق للقوة والنصر للسيف ما توفق صلى الله عليه وسلم الى هذه الانتصارات والفتوحات لانه كان مع صحبه وانصاره اقلّ بما لا يقاس من اعدائه واعداء القرآن الشريف وهذا امر محسوس يكاد يدرك باللمس ولا حاجة فيه الى فراسة متفرس او امعان متمعن ولذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز « كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » وهكذا دانت جزيرة العرب بجملتها للاسلام ودانت به وارتفعت كلمة الله في اطرافها الدانية والقاصية

ثم خرج المسلمون مهاجمين لمحاربة الفرس في بلاد فارس والروم في بلاد الشام فاخضعوا القطرين لسلطانهم بغير كبير عناء وفي اقرب فرصة ولقد اجمع السياسيون والعسكريون على ان الجيش المهاجم يجب ان يكون ضعف الجيش المدافع ولا سيما اذا حارب في بلاد عدوه وهو يحاربه من وراء الاسوار والمتاريس وفي عهد كانت فيه المواصلات عسرة صعبة ومع ذلك فقد لا يتوفق المهاجم الى الانتصار والذي يراجع تاريخ الاسلام يرى ان الجيشين اللذين سارا الى محاربة الفرس والروم ما كان عدد احدهما يربو على بضع آلاف ولكنه كان متسلحاً بكلمة « لا إله الا الله » وسائر لنصرة كلمة الله فلم يستطع اعداؤه الثبات امامه فدخل البلاد ونقلها من الكفر والالحاد الى التوحيد والايمان ومن المظالم والمغارم الى عدل الشريعة المحمدية الغراء وهكذا من قرأ فتوحات المسلمين في صدر الاسلام يرى ان الله سبحانه وتعالى كان ينصر المسلمين على اعدائهم لنشر كلمة الحقّ والمدنية والعدل بين الناس

وكان النصارى والصابئة واليهود والمجوس وغيرهم ممن خضعوا لراية

الاسلام واحتموا بظلال عدل المسلمين يقابلون اهل هذا الدين الحنيف مسرورين مبتهجين مقابلة الاسير لمبشره بالاطلاق من اسره او المحب لمبشره بيوم التلاق لانهم وهم مغلوبون على امرهم ومظلومون في بلادهم كانوا يسمعون عن عدل الاسلام ما يحببهم اليه ويتمنون الاستظلال بظله

ومع ان الاسلام يابى الاكراه في الدين ويمنح كل من يخضع للمسلمين وليس منهم امتيازات شتى اهمها اعفاؤهم من الجندية وفي الاعفاء من الجندية ما فيه من الترغيب كان الناس يدخلون في دين الله افواجاً ويقرون بالشهادتين موحدين سروراً وابتهاجاً لانهم كانوا يرون الاسلام دين الله الحق المعقول الخالي من كل تعسف ويرونه منطبقاً على فطرة البشر يساعدهم على الدنيا ويسعدهم في الآخرة فاكرم به ديناً يهيئ لتابعيه سعادة الدارين ويصونهم من تهوس المتهوسين

واي دين من الاديان بل اي قوم من الاقوام عاملوا الاجانب عنهم وهم الفائزون الفاتحون معاملة المسلمين لاهل النصرانية واليهود لانهم اهل كتاب في وقت لو ارادوا فيه ان يعم الاسلام كل الانام بحد الحسام لما وجدوا من يقوى على مخالفتهم والوقوف في وجوههم. اما الاسلام هو الذي امن النصارى واليهود على كنائسهم واديرتهم واموالهم واعراضهم ؟ واعطاهم حرية التعبد والتدين على ما يشاؤون؟ وكيف لا يبتهجون بحرية كانت عزيزة عليهم في حمى ملوكهم النصارى الذين كانوا يجبرونهم على اتباع هذا المذهب واترك ذلك لا بالحجة والبرهان بل بالسيف والعصى على ما هو مشهور ومعلوم

فاذا تمثلت ايها القارئ الكريم حالة هؤلاء القوم الذين دخلوا في حكم الاسلام والسعادة التي حصلوا عليها في ظلال المسلمين سهل عليك ان تحكم

انهم ما اسرعوا الى الدخول في الاسلام عن رهبة ولكن عن رغبة وليت شعري لماذا لا يرغبون في الاسلام ويدينون به وقد رأوا فيه الراحة والرفاه والامان والعدل والمساواة والحرية والاخاء والمثل الصالح والتقى والورع وليت شعري لماذا لا يقبلون على الاسلام وفيه من السهولة والجزالة والابتعاد عن الشرك والنفور عن ما يشين الاخلاق ما ينطبق على الفطرة التي فطر الله عليها الناس

وبينما كانت النصرانية في تلك المصاعب والمتاعب والانشقاقات الدينية يقاوم قويهم الضعيف بحكم القوة ويستبد الكبير على الصغير بحكم الاستبداد والناس في درك التعب والوصب كان المسلمون بقلب واحد يخترقون البلدان ويدوخون الممالك ويخضعون لشوكتهم وسلطانهم الامم والشعوب وهكذا انتشر الاسلام في اقل من قرن واحد في مشارق الارض ومغاربها وكان ذلك معجزة من معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام وآية من آيات القرآن

## الفصل الثامن عشر

### في الجيل الاول الاسلامي

كان الجيل الاول الاسلامي جيل حرب وفتح قضاه المسلمون في الجهاد في سبيل الله وكان التوفيق محالفاً للمسلمين بحيث ما كان يصعب عليهم فتح اي حصن كان كما ما كانوا يعجزون عن ادارة الحركة السياسية في البلاد التي دانت لهم وخضعت لشوكتهم وسلطانهم

والمسلمون هم أول دولة في الوجود حاربت بالانسانية والانسانية وعلمت

الامم ان المنتصر عليه ان يرحم عدوه المقهور ويترفق به عند مايخضع له ويدين لشوكته سواء عن رهبة او عن انخذال

فقد كان الملوك في سابق الايام اذا حاربوا يستبد الغالب بالمغلوب فيقتل خصيمه او يأسره مع اهله ورجاله ويسبي حريمه كما يسبي كل نساء المدينة التي يفتتحها ويسلب أموال اهاليها وقد روى المؤرخون من ذلك ماتقشعر لسماعه الابدان وتصم له الاذان وكان عندهم ان لا فرق بين من سلم تسليما او اخذ محاربا كما كان اولئك الملوك لا يرحمون احداً حتى ولا النساء والفتيان

واقتصاداً في الوقت نقتصر عن سرد الوقائع الهائلة السيئة التي تمثلت في تلك العصور السابقة للاسلام في عهد الدولة الرومانية والدولة الشرقية ودولة الفرس فان التاريخ مشحون بمساوي هاتيك الحروب التي كانت قد وقعت بين هذه الدول ويندب حال الامم التي تغلبوا عليها

وهؤلاء المسلمون الذي تقدموا للفتح وهم يحملون القرآن وراية «لا إله إلا الله» فوق رؤوسهم ارادوا بالفتح نشر هذا الدين وسعادة ورفاه الناس اجمعين وكانوا يعدون نفوسهم خداماً امناء للانسانيـة وحماة لها على اعدائها وكان هذا موضع نظر رجال السياسة ورجال العقول وبرهان واضح على تأثير هذا الدين الحنيف على العواطف والقلوب وتلطيف الاخلاق الخشنة والعادات السيئة

ان الفترة القصيرة الكائنة بين ظهور النصرانية على الوثنية وانتقال الملك لايدي النصارى وظهور الاسـلام اي من سنة ٣٠٦ م التي تنصر فيها قسطنطين الملك الى سنة ٦٢٢ م التي هاجر فيها نبينا الهادي صلى الله عليه وسلم هي الفترة التي يجب ان يتخذها الباحثون مثالاً للمدنية النصرانيـة البحتة لان

امبراطرة المملكة الشرقية كانوا وقتئذ قائمين في الامر بظلال الدين او كانوا مسيطرين على رجال الدين ( افترض ماتشاء ... )

فتاريخ الكنيسة النصرانية في هذه الفترة يدلّ على ان اهل النصرانية كانوا بويلات وشرور يلعن بعضهم بعضاً ويفتك قويهم بضعيفهم بغير شفقة ولا رحمة كما تقدم القول وتاريخ المملكة الشرقية في حروبها في الشام ومصر ومع الفرس في هـذه الفترة مملوء من المساوي والمعائب والاعمال المنافية لروح النصرانية بل ولروح الانسانيـة ولا يستطيع المتشيع للملوك النصارى في هذه الفترة مهما اوتي من آيات الفصاحة والسفسطة ان يفرق بين اعمال الاكاسرة المجوس عند انتصارهم والقياصرة النصارى عند انتصارهم كأن النصرانية لم تؤثر على افئدة هؤلاء القياصرة وقوادهم النصارى التأثير المنتظر

ولا عجب في ذلك لان النصرانية ماوجدت لهذا العالم بل للعالم العتيـد كما قال سيدنا عيسى عليه السلام «ان مملـكتي ليست من هذا العالم»

ويجب ان يعلم القاريء الـكريم ايضاً ان الروم والفرس كانوا في تلك الفترة هم وحدهم أهـل المدنية والعلم وورثة العمران القديم وهم انفسهم كانوا يأتون تلك المنكرات الدالة على الهمجية او على الاقل على عـدم الشـعور بالعواطف الشريفة العالية

اما العرب فكانوا في هـذه الفترة في جاهليتهم اهـل بداوة وما كانوا يعرفون للمدنية اسما ولا رسما كما كانوا يجهلون كلّ مافي العالم من علم وفلسفة وكانت صناعتهم رعي المواشي والانعام والغزو في ارتياد الـكلأ وكان كبارهم يذهبون بمواشيهم للشام وبلاد فارس لبيعها والعود باثمانها وكانوا على الشكل الذي نرى فيـه تجار الانعام من الـرباق الذين يملأون شوارع القاهرة في

بعض الاحيان

ان هؤلاء العريان مهما قدرت لهم من الذكاء والتعقل أفي استطاعتهم في اقصر وقت ان ينقلبوا الى الشكل الذي وجد فيه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحزم وحسن العزيمة في سياسة الملك وتدويخ الممالك وفتح البلدان وتمصير الامصار

ان العالم بأسره اليوم يندهش من ارتقاء اليابان هذا الارتقاء العجيب في مدة خمسة وثلاثين عاما مع ان ارتقاءهم هذا تسبب عن اسباب معقولة ليس فيها شيء من الغرابة على الاطلاق فانّ في هذا القرن اي القرن التاسع عشر قد اقام العمران من وسائل الارتقاء مايجعل في مثل هذه المدة اعرق الامم في الهمجية والتوحش كأرقى الامم في العلم والمدنية فالمدارس في اوروبا واميريكا على احسن حال وهي منتشرة بكثرة من كل نوع وتقبل ناشئة كل اجناس واشكال الشعوب

ولما اقرت اليابان على النهوض بحزم امبراطورها الحالي العظيم وحكمته اوفد الى اوروبا وامريكا جيشاً جراراً من نبهاء الناشئة اليابانيين واستقدم الى بلاده نبهاء الاساتذة وعظماءهم وشاد المدارس العالية في بلاده وما هو الا عشرون عاما المدة المقررة لحضانة العلم حتى خرج المتخرجون من هذه المدارس وملأوا مراكز الحكومة والجيش والسياسة والادارة الخ الخ وظهرت الدولة اليابانية الى عالم الوجود في اسمى مظاهرها واصبحت في مقدمة الدول الاوربية مدنية وآداباً وعلماً وسياسة وقوة وصار لديها الجيوش المنتظمة والاساطيل الضخمة الخ .

فاذا عدنا بالتاريخ الى اولئك العريان ودرسنا احوالهم السابقة لظهور

الاسلام لا نرى دليلاً واحداً يدل على سعيهم في سبيل الترقي والمدنية والعلم بل بالعكس رأينا اولئك الرجال انفسهم الذين كانوا قبل ظهور الاسلام لا يعرفون من دنياهم الاالغذو وتربية المواشي والاقامة على خشونة البداوة قد انقلبوا بعد الاسلام الى قواد محنكين ودهاة حكماء سياسيين وعمال امناء اداريين وكان العلم الذي تعلموه فاغناهم عن الهندسة والجبر والطبيعيات والتاريخ والكيمياء وغير ذلك من العلوم والفنون التي يتلقاها اليوم رجال السياسة والجندية اغناهم عن ذلك كله دراسة القرآن الشريف الحكيم دراسة القيت الى اذهانهم بتلقين نبينا العربي الامي صلى الله عليه وسلم فاصبحوا ولا نديد لهم في كل رجال العصر الذي كانوا فيه سواء في الحكمة التي ساسوا فيها الشعوب او في القوة التي سادوا بها على الممالك

ليس في العالم باسره من ينكر القوة الالهية التي تجلت على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سواء كان مسلماً او غير مسلم مومناً بكتب الله المنزلة او كافراً بها بل ان كثيرين من المعطلين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر اقروا بفضل هذا النبي الامي العربي عليه الصلاة والسلام في الحركة العمرانية التي احدثها الاسلام وقدروا ان وجوده صلى الله عليه وسلم كان رحمة للعالمين لان رجال العقول من الاوربيين قدروا انه لو لم يظهر الاسلام في ذلك العصر وبقيت البلاد المعمورة تحت رحمة ملوك الروم والفرس ورجال الدين في اوروبا لتلاشى كل اثر للعمران واصبحت البلاد خربة ينوح عليها البوم والغربان وهو قول وجيه خليق بكل من يمعن في سطور التاريخ برعايته والتدقيق في دقائقه

واذا نظرنا الى ما كان بعد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليماً لرأينا سيدنا

ابا بكر الصديق رضي الله عنه قام بأمر الخلافة قومة السياسي المحنك الذي انجبته المدارس ووقف على اسرار الممالك وخوافي الدهاء والسياسة مع انه لم يكن الا كغيره من ابناء العرب الذين لولا القرآن الشريف لما عرفوا شيئا من العلوم والآداب والتواريخ والمعاملات الا ماكانوا يتناقلونه خلفاً عن سلف ولا يخلو النقل من التشويش والتحريف . حارب سيدنا ابو بكر الصديق اهل الردّة وانتصر عليهم وايد كلمة القرآن في شبه جزيرة العرب وسرّى السارية التي كان امر النبي صلى الله عليه وسلم بتسييرها لغزو الشام وارسل غيرها الى بلاد فارس ولم يفعل كل ذلك اعتباطاً وبغير روية ولكن بحزم وحسن عزيمة وجميل الثقة بالله عزّ وجلّ . وقد امتلأ القرآن الشريف بالايات المباركة التي بثت في صدور المسلمين الحكمة والشجاعة والبسالة والفضل والاريحية الى غير ذلك مما يجعل الجبان شجاعاً والجاهل عاقلاً . وناهيك فانّ سيدنا ابا بكر الصديق رضي الله عنه قد تلقى الحكمة القرآنية العالية من فم النبي صلى الله عليه وسلم وبصحبته فلا عجب اذا كان بمقدمة الفلاسفة الحكماء والسياسيين العظماء

ثم قام بالامر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان معجزة الملوك بعدله وفضله وحكمته وحزمه وحسن سياسته وكان وحيد دهره ونسيج وحده

مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

واذا قرأت ترجمة هذا الامام في جاهليته لا تراه الا رجلا بسيطاً منعكفاً على تجارة المواشي والانعام يتنقل بين الشام وفارس للبيع والشراء والمساومة حتى اذا ما استنار فؤاده بانوار القرآن وتأدب بآداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهر منه ماظهر من تلك الآيات البينات في العدل والفضل

والسياسة والرئاسة وكان نابغة أهل الفضل بغير جدال وموضع فخار المسلمين على ممر الاجيال ولعمري انّ رجلاً كعمر وفي مثل فضله لهو خير مثال لادب القرآن وفضل الاسلام

وهكذا قل عن بقية اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانّ كلا منهم كان دهقانا في السياسة وبطلا في الحرب وقائداً للجيش ونبراساً للهدى بفضل صحبتهم رسول الله وتادبهم بأدبه رضي الله عليهم فهذا ابو عبيدة الجراح وسعد ابن ابي وقاص وطلحة والزبير والامام علي كرم الله وجهه وعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان كلّ منهم آية الايات وسباق غايات

---

# الفصل التاسع عشر

## الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين

لايشقّ على المسلم اكثر من ان يقال له «ان دينك هو دين همجية ووحشية وظلم واستبداد وانك مازلت متبعاً هذا الدين فستظلّ دون العالمين ارتقاءً وحضارة وسوف يبقى قومك في جهالتهم رازحين وفي الخضوع الى الاجانب مستكنين» ثم ان المسلم الصحيح الايمان المتمسك بأركان الاسلام أهون عليه ان يسفك دمه في سبيل الله من ان يسمع مثل هذا القول الهراء والسبة الشنعاء

نحن لانبالغ اذ قلنا ان الاوربيين يعتمدون على هذا الافتراء المحض في بحثهم عن المسلمين والاسلام بل انهم تجاوزوا هذا القول المجرد الى التفصيل وبنوا على مايشاهدونه اليوم في بعض مظاهر البلاد الاسلامية حكمهم على

الاسلام فكان حكما جائرا دالا على جهلهم المطبق في دين المسلمين وتاريخهم وعوائدهم وآدابهم وكل مايتعلق بهم

نحن لا ننكر على هؤلاء المتبجحين من الاوربيين بعض ما يشاهدون في البلاد الجاهلة الشرقية ولكن الذي ننكره عليهم هو نسبة هذه المشاهدات الى الدين وليس الى الجهل فلو انصفوا لبحثوا ودققوا وقالوا ان المسلمين لو اتيح لهم ان يتأدبوا بآداب قرآنهم لبلغوا من الحضارة والمدنية المقام الاعلى ولكن من اين لهم ان يقولوا مثل هـذا القول وهم يجهـلون احكام القرآن الشريف ويأبى عليهم تعصبهم الاعمى ان يتعلموا مايجهلون

واذا كان الشيء بالشيء يذكر وقد مر معنا نتف مما كان على عهد النصرانية في ايام مجـدها وسطوتها وكيف كان خليفة النصارى وهو البابا يضغط على القلوب والجيوب ويعمل جهده على التسلط على العقول والاجسام اما هو خليق بنا ان ننظر الى الخلفاء الراشدين رضي الله عليهم ؟؟؟ الذين هم خير مثال لتاثير القرآن الشريف على العواطف والاخلاق

لقد تعلم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم الخلفاء الر شدون من القرآن الشريف « ان المؤمنين اخوة » ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان المسـلم لايفضل اخاه المسـلم الا بالتقوى» و« ان المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشـد بعضه بعضاً » الى ماهو بهذا المعنى من الآيات الشريفة والاحاديث المنيفة

وقد لا يستغرب هذا التعليم اهل العصر الحاضر ولا سيما في أوروبا لانهم يرون في تلك الممالك ( ولا سيما الجمهورية منها) ان اهل الوطن متساوون لا يفضل احدهم الآخر الا بفضله وانهم متساندون متشاركون في ادارة

حكامهم وحفظ عصبيتهم وما يعود على مجموعهم بالمنفعة والفائدة نعم لقد وجد هذا التعليم في اوروبا من مئة وخمسين عاماً فقط وما زال يترقى الى ان بلغ درجته الحاضرة وقام الاوربيون يتشدقون بالمساواة والاخاء والحرية ويفاخرون بهذه المبادي الثلاث العالمين ويقولون ان لا مدنية الا ما كان من جني ايدينا وبنات افكارنا ويساعدهم على هذا التبجح ما يشاهدونه في الامم الغير اوروبية من الابتعاد عن هذه المبادي الاجتماعية الحيوية الثلاث فيعللون ذلك بتأثير الدين عليها وينادون بملء اشداقهم « ان لا مدنية في الاسلام » كذبوا والله على الله وعلى التاريخ فيما يتشدقون

ان الاسلام هو الواضع مبدأ الحرية والمساواة والاخاء منذ الف وثلاثماية وخمسة وعشرين عاماً اي قبل ان تهتدي اوروبا الى هذه المبادي التي كانت اساساً لمدنيتها الحاضرة باثني عشر قرناً تقريباً ونحن لا نكتفي بالاشارة الى نصوص القرآن والحديث الشريفين وهي كثيرة بل نشير الى المسلمين وقد وضعوا هذه المبادي موضع العمل في ممالكهم وبها امتد سلطانهم وازهرت مدنيتهم وعلا فخارهم

فهذا سيدنا ابو بكر رضي الله عنه تولى الخلافة بعد وفاة نبينا صلى الله عليه وسلم بالانتخاب كما تنتخب الجمهورية الفرنسوية رؤساءها في هذه الايام ولما طلب منه عند وفاته ان يستخلف لم يستخلف الا بعد ان امتزج اصحاب رسول الله ووقف على نواياهم وما يضمرون ولما تولى الامام عمر رضي الله عنه الخلافة وقف في الناس خطيباً فحمد الله واثنى عليه ثم قال يا قوم اذا رأيتم مني اعوجاجاً فقوموه ففاجأه اعرابي قائلا والله لان رأينا منك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا فهل وراء ذلك من حرية في القول والفعل ؟؟؟

واشباه هذه الحوادث مما لا يدخل تحت الحصر وكلها تدل دلالة صريحة على ان روح الشورى والمساواة والحرية والاخاء كانت منبثة في صدور المسلمين بثها القرآن الشريف وعمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ كان يشاور اصحابه في كل عمل يأتيه وهو الغني عن كل مشورة وقد سدد الله مساعيه في الصراط الاقوم المستقيم

كنا نظن ان هذا واضح ظاهر في تاريخ المسلمين فلا يحتاج الى ايضاح او تبيين لو لم نر من هؤلاء الاوربيين هذا التحامل المشين الذي يسوقهم اليه جهلهم بديننا وتعصبهم ضدنا وما الجهل والتعصب الا مطيتا الغرور ومسهلتا الحيف والجور في كل الامور

---

## الفصل العشرون

### في الخلافة الاسلامية

كان عهد سيدنا ابي بكر عهداً تمهيدياً للخلافة الاسلامية وكان عهد سيدنا عمر عهداً جليلاً للفتح والانتصار ذاك قوي بحكمته وحزمه ورباطة جأشه على تهدءة الخواطر ومحو الشكوك التي اثارها موت الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا عدل في الناس وجاهد في سبيل الفتح فامتد على عهده ملك المسلمين ذلك الامتداد الغريب المدهش المحير للعقول والافهام والشاهد العدل لجاه ومجد وفخامة الاسلام

ولا بد لنا من ايضاح النقط السياسية الكبرى التي عرضت للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وكان لها تأثير في المسلمين في تقدمهم وتقهقرهم ودينهم ودنياهم حتى الان وهي في مكان من الفائدة لا يجوز ان يتغاضى عنها

الباحث المدقق في شؤون الاسلام والناظر الى ماظهر وبطن من احوال المسلمين

كان المسلمون يعتقدون ان النبي صلى الله عليه وسلم سيظل خالداً لا يموت وهذا الاعتقاد كان مسبباً عن الوهم المحض لان الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل»

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشبه ابا بكر وعمر بسمعه وبصره ولما مرض مرض الموت دعا بابي بكر وامره ان يصلي بالناس وما زال كذلك الى ان قبضت روحه الطاهرة لخالقها صلى الله عليه وسلم

ولما ذاع في المسلمين نبأ موته صلى الله عليه وسلم اخذوا يكذبونه بكل شدة حتى ان عمر رضي الله عنه لما دخل المسجد وقيل له ان النبي قد مات اضطرب واغتاظ واشهر سيفه وصاح بملء شدقيه قائلا من يقول ان محمداً قد مات فليس امامه الا ضربة من هذا الحسام

وكان سيدنا ابو بكر وهو شيخ هذه الامة وحكيمها في بيته فلما بلغ المسجد وسمع ما سمع ورأى ما رأى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقبله وبكا ثم خرج فعلا المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال «من كان منكم يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت» ثم ذكر تلك الآية الشريفة المشيرة الى موته عليه السلام وعزى الامة واوصاها بحب بعضها بعضاً ونزل وكان ذلك منه رضي الله عنه نتيجة حزم ورباطة جأش وحسن روّية

ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يستطيع ان يعين الشخص الذي يخلفه في حكم المسلمين وهو الآمر الناهي وما من يردّ كلمته وهو العارف باصحابه واقتدار كلّ منهم ولكنه لم يفعل تأييداً لمبدأ الشورى الذي اراد ان

يؤيده بحياته تأييداً علماً منه صلى الله عليه وسلم ان اصحابه يعرفون المستحق لهذه الوظيفة العليا وانه هو صلى الله عليه وسلم مؤدبهم فلا يزوغون عن سواء السبيل

على انه صلى الله عليه وسلم لم يشأ ان يتركهم هملاً رحمة منه بهم فامر سيدنا ابا بكر رضي الله عنه ان يصلي بالجماعة وهو على فراش الموت وعرف بعد ذلك اصحاب رسول الله ان النبي كان يفضل الصديق على جميعهم ففضلوه على انفسهم

واعتبر اصحاب رسول الله مركز الخلافة دينياً وسياسياً وان على الخليفة ان يهتم بالمسلمين في معايشهم ومعادهم ويسعى ليكونوا سعداء في الدارين وقد عرفنا ذلك من اعمال وخطب سيدنا ابي بكر الصديق وسيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما وقد مثلا بحسن سياستهما وحزمهما وتقواهما حقيقة الخلافة والخليفة مما يجب ان يكون ظاهراً واضحاً لدى كل من يتولى امراً من امور المسلمين جلّ وعظم او تدانى واحتقر

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاح

ولم يكن سيدنا عثمان رضي الله عنه اقلّ استعداداً وتقوى من سالفيه معاذ الله بل كان مثلهما هدياً وعلماً وعملاً ولكن سلامة قلبه وتغلب اهل عصبيته عليه في السنوات الست الاخيرة من خلافته كانا سببين كبيرين لقتله رضي الله عنه وتحول الخلافة من بعده من صفتها الدينية الى صفة سياسية محضاً لولا ان المتربع على دست الخلافة يلقب بالخليفة

والذي يحث جلياً في هذا الموضوع الخطير ير ان بني امية كانوا قبل الاسلام اصحاب السلطة والنفوذ والحلّ والعقد في البلاد العربية فلما

ظهرت النبوة في بني هاشم صعب عليهم الامر واستنكروه وقاموا لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاربهم وقواه الله عليهم وكان آخر من دخل في الاسلام ابو سفيان وولداه يزيد ومعاوية اللذان سارا مع حملة المسلمين على محاربة الشام وفتحها على عهد سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه وبعدالفتح تسمى يزيد عاملا للخلافة على الشام وخلفه معاوية

ولم يكد يتربع معاوية على امارة الشام حتى طمحت نفسه على ما فيه من الدهاء للوصول الى الخلافة فجعل يحشد المال ويشتري الرجال بالاعطية والمنح. ولما تولى الخلافة سيدنا عمر بن الخطاب لم يشأ ان يعزل معاوية عن الشام مخافة الفتنة مع انه لم يكن راضياً عما يعمله وليس الامام عمر ممن تخفى عليه خافية مما كان يعمله معاوية لمستقبله.

ولما قتل الامام عمر رضي الله عنه عمل الامويون وفي مقدمتهم معاوية على مبايعة سيدنا عثمان رضي الله عنه ولا عيب فيه كما قال الامام عمر الا انه كثير الميل لاهله وعصبيته ومن هذا العهد جعل الامويون يستولون على اعمال الخلافة ويتوسعون في السلطة الى ان قتل الامام عثمان فاتهم معاوية الامام علي بقتله على ما سيجيء واتخذ ذلك واسطة لتغيير قلوب المسلمين عن الامام علي وافضت الفتنة الى قتل الامام ومبايعة ابنه الحسن رضي الله عنه لمعاوية وهكذا تمكن ابن ابي سفيان بدهائه المدهش العجيب من التربع على دست الخلافة وتحويلها من صفتها الدينية الى صفة سياسية محضاً فكانت دولة عربية بحتة

وسنمرّ على خلافة الخلفاء الراشدين في الفصول الآتية فان في ذلك عبرة وذكرى لقوم يعقلون

# الفصل الحادي والعشرون

## في خلافة ابي بكر الصديق

رأى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سيدنا ابا بكر الصديق رضي الله عنه وارضاه اللائق فيهم لتولي الخلافة حكمة ورشاداً وعلماً وسناً وقدمية في الاسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفوق ذلك فقد رأوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد طلبه ليصلي في المسلمين عند ما كان على فراش الموت بياناً للمسلمين عن ثقته في هذا الرجل الحازم المحنك . وكان اصحاب رسول الله يحترمون ابا بكر احتراماً خصيصاً لما ذكرناه من صفاته الحسناء وسجاياه الرضية الوضاء فلا بدع اذا اجتمعت عليه كلمتهم واقرّ عليه أئمتهم ووجوههم

على انهم ما كادوا يقرون على استخلافه ويبايعونه حتى بلغهم ان الانصار قاموا للمطالبة بالخلافة وكانوا في مقدمة المنازعين عليها فسار ابو بكر اليهم ومعه عمر وغيره من الصحابة والاخيار رضوان الله عليهم واستعرت نار الجدال بينهم وبين سعد بن عبادة في السقيفة وما زالوا في اخذ ورد حتى استمالوا الانصار الى مبايعة سيدنا ابي بكر رضي الله عنه واخذوا بيعته وظنوا ان الامر قد قضي واذا بالامام علي كرم الله وجهه يطلب الخلافة لنفسه لانه ابن عم النبي وربيبه وزوج فاطمة ابنته رضوان الله عنها واشتدّ الامر وابى علي المبايعة ونصرته امرأته فاطمة رضي الله عنها وأخذت تجول على الانصار وتستنجدهم على ابي بكر كما اخذ اصحاب رسول الله وفي مقدمتهم سيدنا ابو بكر الصديق

يسترضونها فلم ترض وكانت حجتهم في عدم استخلاف سيدنا علي معقولة وهي انه كان شاباً يحتاج الى حنكة وخبرة وتجربة وكانوا يقولون له ان الامر امامك وستناله في مقبل الأيام فلم يرض وقد اراد الامام عمر رضي الله عنه ان يحمل سيدنا ابا بكر رضي الله عنه على اجبار علي على المبايعة او الفتك به خوف الفتنة فلم يوافقه الصديق على ذلك لما انت تعلم من تقواه وحبه لآل البيت الطاهر فانظر الى هذه الشورى وهذا الانصاف

وما زال الاضطراب بالغاً حدّه في الاسلام حتى توفيت سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها بعد سبعين ليلة من وفاته عليه السلام والصلاة فاشار عمر على ابي بكر يوم وفاتها ان يدعو علياً اليه ويجبره على مبايعته ففعل ولما وقف علي بين يديه امره بالمبايعة فرضي بذلك بعد الجهد وبايعه في صبيحة اليوم التالي وكان قد اقتنع بان الخلافة في حاجة الى رجل حزوم مثله ولا سيما في تلك الظروف الحرجة

وما تسوت هذه الازمة حتى قام العباس عم النبي صلى الله وعليه وسلم يطالب بالخلافة لنفسه واشتدّ الجدال ثمّ انتهى الامر بان بايعه وهكذا تمت المبايعة لسيدنا ابي بكر رضي الله عنه وارضاه وحينئذ استلم زمام الخلافة بعد كل هذاه الاهوال والمصاعب

وما كاد يستريح من متاعب البيعة حتى قامت قيامة اهل الردّة فان الناس لما رأوا اصحاب رسول الله مختلفين على الخلافة تظاهروا بالارتداد عن الاسلام فهمّ ابو بكر بمحاربتهم ولما رأوه شديداً عليهم قالوا بل اننا مسلمون نصلي ولكن نأبى اعطاء الزكاة لانها كانت حقاً للنبي صلى الله عليه وسلم ولا تجوز لسواه وكان الامام عمر قد خاف شرهم فلما رأى تساهلهم هذا دخل

على ابي بكر رضي الله عنهما وقال له ان الاولى بك ان تقبل منهم ياخليفة رسول الله صلاتهم وتعفيهم من الذكاة لانهم عدد كبير ونحن قليلون ولا قبل لنا عليهم وتعب كثيراً في مرضاته فلم يقبل وقال والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ولو لم اجد احداً اقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني و بينهم وهو خير الحاكمين وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول « امرت ان اقاتل الناس على ثلاث شهادة ان لا اله الا الله واقامة الصلاة وايتاء الذكاة » فوالله الذي لا اله الا هو لا اقصر دونهن . واذا نظرت في كلمات ابي بكر هذه لوجدت الحزم وحسن العزيمة بأتم مظاهرها وهكذا حارب سيدنا ابو بكر اهل الردة بمثل هذه الشجاعة حتى دخل الناس في الاسلام طوعاً وكرها وحمدوا رأيه وعرفوا فضله . ولما استقرّ السلام اقبل الناس يهنئون الخليفة ويثنون على حكمته وكان بمقدمتهم الامام عمر الذي دنا منه وقبل رأسه وقال انا فداؤك لو لا انت لهلكنا ثم حمد له رايه في هذا القتال وقال بمثل هذا يرتفع قدر الرجال

وكانت المدة التي قضاها سيدنا ابو بكر الصديق في الخلافة على قصرها ملأى بالحوادث الاساسية التي تحداها المسلمون فيها بعد فسالة اهل الردة ومسالة المبايعة وكلتاهما من الخطارة بمكان سحيق تحتاجان الى حنكة وخبرة مثل هذا البطل العظيم والسياسي المحنك والخبير المجرب

اما المسألة الثالثة التي ظهر فيها سيدنا ابو بكر بعظمته الحقيقية فهي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبيل وفاته سرّى سارية لفتح الشام ثم لما مات وكانت السارية لم تبعد كثيراً عن الحجاز ارتأى اصحاب رسول الله بما

حدث في صدورهم من الخور ان تسترجع هذه السارية وزادهم خوراً ما راوه من ظهور اهل الردة واباء آل البيت عن مبايعة الصديق مما خيف معه من الفتنة اما سيدنا ابو بكر رضي الله عنه ففي تلك النفس الكبيرة والسداد المدهش العجيب سفه احلامهم الطائشة وقال والله لا انقض ما ابرمه رسول الله والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء وهكذا سارت تلك السارية وفتحت الشام

وكان ابو بكر الصديق خير مثال للحاكم العادل النزيه بتقواه وعدله وفضله حتى كان لا يتأخر ان ينتصف للمظلوم حتى من نفسه . وكان لا يستسلم الى من حوله من العمال والامناء بل كان يراقب كل الامور جليلها وحقيرها في نفسه ويقول اخاف ان يظلم واحد من المسلمين فيطالبني بمظلمته في يوم القيامة . وكان يجتهد كثيراً بتطبيق كل حركة وسكنة من حركاته وسكناته على المبادي الشريفة التي تلقاها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قولا او عملا ولذلك كان الناس ينادونه كيفما اتجه لله درك يا خليل الرسول وخليفة المسلمين

والذي يستخلصه القاري الكريم من هذه الخلاصة هو ان سيدنا ابا بكر رضي الله عنه صاحب الفضل الاكبر في نشأة الاسلام بعد وفاته عليه الصلاة والسلام وانه ما رضي بالخلافة لنفسه الا لخير هذه الامة والواقف على سير اصحاب رسول الله واخلاقهم في ذلك العهد لا يتردد ان يحكم لاول وهلة ان لولا سيدنا ابو بكر الصديق رضي الله عنه لتفاقم الخطب وتضعضع شأن الاسلام وكان من المستحيل ان يرضى آل البيت النبوي الطاهر والصحابة والانصار بمبايعة غيره والخضوع لسواه . ومن كان كابي بكر الصديق رضي الله عنه وفي عمره وذكائه وصحبته الطويلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا

عجب اذا قام بمثل هذه الخدمة المشكورة للاسلام والتي اتخذها حينئذ المسلمون اساساً لتقدمهم العجيب في مقبل الايام وليس مثل ابي بكر الصديق ممن تجب الامهات بل هو الفذّ المفرد بين اصحاب العزائم والكرامات

## الفصل الثاني والعشرون

### نظرة سياسية في خلافة سيدنا ابي بكر

ان سيدنا ابا بكر الصديق رضي الله عنه تولى الخلافة مدة سنتين وبضع شهور وهو عهد على قصره كان حافلاً بجلائل الاعمال التى كان لها تأثير كبير على مستقبل الاسلام في الحال والاستقبال

فقد رأينا ان القوم بين آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه وانصاره قد داخلتهم الرغبة في الخلافة وكل فريق منهم كان يعتقد انه على الحقّ في طلبها وحقٌّ لهم ذلك والخلافة هي المقام الاسمى لاهل هذا الدين في دنياهم ومعادهم فمن لا يطمع في هذا المقام الكبير ويتمناه لنفسه؟؟؟ ولا سيما اذا كان يرى من نفسه استحقاقاً له او سبيلاً للوصول اليه

فآل رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون الخلافة ويطمحون اليها بابصارهم وهم ورثته وعشيرته واهله وفي مقدمتهم الامام علي كرم الله وجهه وهو ربيب بيته وصهره زوج ابنته فاطمة رضي الله عنها

واصحابه رضوان الله عليهم كانوا يتسابقون الى طلبها وهم السابقون الى الاسلام والذين تحملوا مشقات الهجرة وويلات الاضطهاد من المشركين في سبيل الله وهم فوق ذلك قومه صلى الله عليه وسلم وعشيرته

والمحاربون تحت رايته

وأنصاره صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون الخلافة ويعتقدون أنهم أحق الناس بها لانهم نصروه على المشركين وأحلوه مع أصحابه محلا رحباً ووقفوا في وجوه قومه الذين حاربوا الحق حباً بالضلال وطغوا وبغوا وما كان الله ليظلمهم بل كانوا انفسهم يظلمون وما زالوا يحاربونهم تحت رايته حتى نصره الله على المشركين وعمت كلمة الله في الحجاز وعلت كلمة الهدى على كلمات الضالين وابى الله الا ان يتمّ نوره ولو كره المنافقون

وأنت تعلم لدى اقل تأمل ماوراء هذه الفتنة لو استيقظت في ذلك العهد وقام المسلمون على بعضهم متحاربين متنافسين طلباً للخلافة وحباً في السلطة والسيادة واذا علمت ذلك وتفطنته جيداً ظهر لك فضل سيدنا ابي بكر رضي الله عنه في اسمى مظاهره واجلى مجاليه

ورأينا ان اهل الردّة قاموا على اصحاب رسول الله وانصاره رضوان الله عليهم وتركوا الاسلام وعادوا الى الطغيان ولو تمهل او توانى الصديق في محاربتهم لاستفحل امرهم واعاقوا المسلمين عن الفتح وكذلك لو رضي الصديق بما اقترحه الامام عمر من اعفاء هؤلاء المرتدين عن الاسلام من دفع الذكاة لما قوي المسلمون لقلة المال من الخروج للحرب وفسد عليهم امرهم فاذا تفطنت ذلك جيداً اتضح لك حزم سيدنا أبي بكر بكل معانيه واقررت انه رجل هذه الامة بلا جدال

ورأينا ان سيدنا ابا بكر رفض اعادة السارية التي سرّاها رسول الله لفتح الشام قبيل وفاته ولو فعل لانكسرت قلوب المسلمين وفقدوا شجاعتهم وربما كانت اعادتهم هذه سبباً لاضاعة كل مستقبل لهذا الدين الحنيف

فالمسلمون كانوا على عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تغلب قلتهم اعداءهم الكثار ببركة وجوده وفضل تعليمه ونصرة الله سبحانه وتعالى له ولهم وقد سيرهم رسول الله لفتح الشام وهو واثق انهم على غلبتهم سيفتحون الشام كما كان الجند السائرون مطمئنين من هذا الفتح وهم يرددون قوله تعالى «كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأذن الله» فلو استرجعوا من نصف الطريق لغير ماسبب سوى وفاة رسول الله لخارت عزائمهم وضعف ايمانهم بالنصر ايضاً فاذا تدبرت ذلك جيداً فاحكم بان سيدنا ابا بكر صاحب الرأي الرشيد والفكر السديد والمرمى البعيد رضي الله عنه وارضاه

قضى سيدنا ابو بكر الصديق هذه المدة القصيرة في الخلافة بين موفق بين الاحزاب و بين عامل على ترتيب شؤون الدولة وبين محارب اهل الردة وبين منفذ اوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا قضى مدة خلافته القصيرة ولاقى فيها من المصاعب والمتاعب والاهوال الشيء الكثير في الوقت الذي كان فيه مناظروه يحسدونه على هذا المقام الرفيع في الاسلام ويتمنون الوصول اليه في مقبل الايام

ان سيدنا ابا بكر الصديق رضي الله عنه مات شيخاً تجاوز عمره السبعين عاماً قضى معظمها في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ثاني اثنين في الغار ورفيقه في الحل والترحال وكان في مقدمة من مات رسول الله وهو عنهم راض

وبعد هذه الخبرة الطويلة في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى سنتين وبضع شهور في الخلافة وكان اول من تولى شؤون المسلمين العامة بعد الرسول العربي الكريم وعمل على نجاحها وخيرها وتقدمها فلا عجب اذا حسنت مساعيه وتمت امانيه وصدقت احلامه وتسفهت احلام الآخرين

الذين ما كانوا يرون رايه ومات قرير العين مطمئن الخاطر على مستقبل هذا الدين واهله ونقدر ان نقول ان ما ابداه من الحنكة والحزم وحسن السياسة والكياسة ووضع الامور في مواضعها هو الذي شجع المسلمين على مداومة العمل في سبيل الفتح كما كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم

وكما كان تاثيرسيدنا ابي بكر عظيما على المسلمين عامة كان تاثيره اعظم على اصحاب رسول الله رضي الله عليهم حيث وحد كلمتهم وجمعهم على العمل بغير منافسة ولا مزاحمة ولا حقد ولا حسد مما يكثر في صدور المتناظرين المتكافئين في كل زمان ومكان

ويظهر من الكلمات التي فاه بها سيدنا ابو بكرالصديق وهو على فراش الموت ذاهب ليلاقي ربه بما كسبت يداه وما كسبتا الا الخير انه ندم على مقاومة الامام علي كرم الله وجهه حتى ماتت سيدتنا فاطمة رضي الله عنها وهي غير راضية عنه وندم لانه لم يبايع الامام عمر او ابا عبيدة ابن الجراح رضي الله عليهم يوم سقيفة عند ما قام الانصار يطلبون الخلافة لانفسهم وما كان ندمه في الحالتين لانه جاء امراً اداً بل لان تقواه كانت تريه مرضاة الله فوق كل شيء على انه مع ندمه هذا ما كان مخطئاً في عمله الذي صدر عن حزمه وسداد رأيه لان مصلحة الاسلام كانت تطلبه الى هذا المركز العظيم والمقام الفخيم الذي هو الزعامة الكبرى للمسلمين

نعم ان سيدنا علي كرم الله وجهه كان له من قرابته ومصاهرته رسول الله صلى الله عليه وسلم شفيع يشفع له بالخلافة الا ان صغر سنه وقلة خبرته بالشؤون السياسية كانا يحولان وقتئذ بينه وبين الزعامة العامة .

ومبدأ الشورى الذي كان اساساً للعمل بين اصحاب رسول الله كان

يقضي على سيدنا ابي بكر الصديق بقبول هذه الزعامة وقد افهمه الصحابة الكرام ان ليس سواه لهذا المقام الجليل وعلى ذلك فما كان باستطاعته التخلي عن منصب اجمع الصحابة الفخام على اختياره له ووجد نفسه كفؤاً له

وعدا هذا وذاك فانّ سيدنا ابا بكر نفسه ما كان يرضى ان يترك المسلمين في ذلك الزمن الصعب الحرج اصغاء لصوت ضميره لانه كان يعرف ان الواجب فوق العواطف والاميال وكان الواجب نحو هذه الامة يقضي عليه بدوس كل أمر صعب في سبيل سلامة القرآن والاسلام

وكذلك امتنع سيدنا ابو بكر عن مبايعة عمر لشدته اولاً وخوفا من حسد اقرانه من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانياً نعم ان الامام عمر تولى الامر من بعده ولكنه لما تولاه وجد كلّ شيء قد تهيأ وكل صعب قد تسهل لان الصديق ما ترك هذه الدنيا الا والخلافة مسهلة الصعاب والمسلمون بعضهم لبعض اصحاب واحباب تركهم في هذه المدة القصيرة كافراد العائلة الواحدة متكاتفين متضامنين

وفوق ذلك فان الشدة التي كان متصفاً بها الامام عمر كانت مما تخيف لو هو تولى امر المسلمين وهم في تلك الفوضى وما كانت حكمته لتغني عن شدته فتيلاً ولا ما كان فيه من بعد مواقع النظر والدهاء العجيب المدهش والعدل الذي فاق به كلّ حاكم عادل في الوجود فقد كان رضي الله عنه لا تاخذه في الحق لومة لائم ولكنه كان شديداً في الحق

نعم ان احسن مافي الرؤساء تمسكهم بالحق واعراضهم عن الباطل لكن شدة الحاكم في الحق لا تكون في كل وقت مفيدة للامة بل يجب ان يصاحبها شيء من الحنكة وحسن السياسة والتلطف في معاملة الناس مما اكتسبه الامام عمر فيما

بعد من معاشرة الصديق وهو خليفة المسلمين لايفارقه ليله ونهاره وصحبته هذه الانت من شدته ولطفت من قسوته

والدي منع الصديق عن مبايعة الامام عمر منعه عن مبايعة ابي عبيده الذي كان يسميه رسول الله صلى الله عليه وسلم بامين هذه الامة ولو ان هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه اطال الله في عمره لكان خليفة المسلمين بعد الامام عمر بغير جدال على ما قال الامام نفسه وهو محتضر

وكان الصديق رضي الله عنه كثير الشكوى من المهاجرين الذين كانوا يكثرون من التقمقم عليه وهو يداريهم ويتلطف بهم بما خلق الله في نفسه من الحكمة وقد اظهر شكواه منهم عند ما حضرته الوفاة لابن عوف وغيره ممن كانوا حوله ولا عجب في ذلك فان هولاء الانصار كان كلّ واحد منهم يرى نفسه كفوًا للخلافة فيحسد الصديق عليها ويشاكسه في سبيلها وهي حالة مزعجة لو تصور المتصورون. وقد شكا منها الصديق على ما وصفنا من فضله وسعة صدره فكيف لو تولى الخلافة غيره في ذلك الزمن الصعب الحرج انهم ولا شك لكانوا غلوا يديه عن كل عمل مفيد للمسلمين

ثمّ لما سأله اصحاب رسول الله ان يستخلف تفادياً من الوقوع في الاضطراب من بعده استخلف عليهم عمر وقال «فان تروه عدل فيكم فذلك ظني به ورجائي فيه وان بدل وغير فالخير اردت ولا اعلم الغيب» فرضي الناس به حتى الامام علي لما صار لهم من الثقة بالصديق والاعتماد على رأيه ثم خرجوا فارسل وراء عمر وابلغه الامر فرفض فقال له « ماحبوتك بها ( اي الخلافة) ولكن حبوتها بك»

والغريب المدهش في هذا الاستخلاف ان الناس باجمعهم قد رضوا به واسرعوا

فبايعوا الامام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما كانوا قبل سنتين يزاحمون ابا بكر على الخلافة ومن هنا نقدر ان نعرف جيداً قدر حزم الصديق وحسن سياسته حتى جعل الناس يخضعون لكل امر اراده لاعتقادهم ان فيه الخير لهم وهي ثقة لا توجد الا في الشعب الذي يرى حاكمه متجرداً لخدمته متفانياً في سبيل تقدمه وارتقائه دائساً كل مصالحه الشخصية حباً بالمصلحة العامة

---

# الفصل الثالث والعشرون

## خلافة الامام عمر

لما مات سيدنا ابو بكر الصديق وبايع الناس الامام عمر حسب وصيته لهم ظهر حينئذ هذا الامام الجليل بمظهره الحقيقي واقتداره العجيب المدهش وتبدل ذلك الخوف من حدته الى الاطمئنان بعدله وذلك الكره له الى حبّ وولاء حتى اصبحوا يفتدونه بنفوسهم وصحّ فيه ان يقال يوم مقتله

تولاها وليس له صديق      وخلاها وليس له عدوّ

ولقد روي لنا ان الامام عمر رضي الله عنه عندما جلس للمبايعة في المسجد على اثر موت الصديق اتاه رجل من عامة العربان وقال له ادنو منك؟ فان لي حاجة اليك. قال عمر لا قال الرجل اذاً اذهب فيغنيني الله عنك وولى ذاهباً فاتبعه عمر ببصره وما لبث ان اسرع اليه واخذ بتلابيبه وقال له ما حاجتك يا صاح؟ فقال الرجل بغضتك الناس وكرهك الناس قال عمر ولمَ ويحك فقال الرجل للسانك وعصاك قال فرفع عمر يديه فقال: اللهمّ حببهم اليّ وحببني اليهم قال الرجل فما وضع يديه حتى ما على الارض احبّ اليّ منه

وروي ايضاً ان اهل الشام لما بلغهم مرض ابي بكر واستبطئوا الخبر قالوا انا لنخاف ان يكون خليفة رسول الله قد مات وولي بعده عمر فان كان عمر هو الوالي فليس لنا مصاحب وانا نرى خلعه قال بعضهم فابعثوا رجلاً ترضون عقله قال فانتخبوا لذلك رجلاً فقدم على عمر وقد كان عمر قد استبطأ خبر اهل الشام فلما اتاه قال له كيف الناس قال سالمون صالحون وهم كارهون لولايتك ومن شرك مشفقون فارسلوني انظر احلو انت ام مر؟؟ قال فرفع عمر يديه الى السماء وقال اللهمّ حببني الى الناس وحببهم اليّ

ومن هاتين الروايتين اللتين سردناهما يتضح لك ثلاث امور حرية بالاعتبار اولها ان الامام عمر كان لشدته في الحق قد كرهه الناس مع انه بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير هذه الامة حزما وعزما واسلاما ولذلك لم يكن صالحاً بعد موت رسول الله للخلافة ثانيا ان الامام كان يعلم من نفسه هذه الشدة فاخذ يتمرن على حسن السياسة والتلطف بمعاملة الناس على يدي سيدنا ابي بكر الصديق ثالثاً ان الامام لما افضت اليه الخلافة اخذ يتمنى على الله ان يذهب عنه كره الناس له ويحببه اليهم فلا عجب بعد ذلك كله اذا قضى عشر سنوات في الخلافة على احسن مايحكم الحاكم النزيه العادل رعاياه

ووالله مافارق عمر الدنيا حتى احبّ ولايته من كرهها فقد كانت امارته فتحا واسلامه عزا ونصراً واتبع في عمله بالتدقيق سنة صاحبيه وآثارهما كما يتبع الفصيل اثر امه والذي يقرأ سيرة الامام بامعان ويسرح طرفه في ماضي تاريخه من يوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الله ان يعزّ الدين بعمر والمسلمون محتسبون في مكة كرمها الله حتى اليوم الذي اسلم فيه عمر وكان اسلامه اعزازاً للمسلمين الى يوم هجرته الى المدينة المنورة فكانت

هجرته فتحا عظيما ونصرا كبيرا الى الايام التي شاهد فيها مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يغب عن واحدة منها بل كان بلاؤه فيها كلها البلاء الحسن في المشركين حتى قال النبي يوم كذا وكذا وما زال حائزاً على رضوان الرسول صلى الله عليه وسلم حتى مات وهو عنه راض الى يوم موازرته الخليفة ابي بكر على اهل الردة ومناصرته في سياسة المسلمين الى ان قبض الخليفة وهو عنه راض وتولى الخلافة بالخير فمصر الله به الامصار وجبى به الاموال وقهر به الاعداء واعزّ به الاوفياء وادخل الله بعهده على أهل كل بيت من المسلمين نشأة في دينهم وتوسعة في أرزاقهم ثم ختم الله له بالشهادة بعد هـذا الجهاد الطويل فابقى بعده الذكر العاطر والمآثر والمفاخر مما يبلى الزمان ولا يبلى له ذكر في الاحسان وأثر محمود للمدنية والعمران

وامتدّ ملك المسلمين على عهد الامام عمر امتـداداً شاسعاً وظهرت الخلافة في عصره بازهى مظاهر المجد والعظمة والسؤدد وكان الناس يضربون الامثال بعدل هذا الامام الذي كان ينتصف للمظلوم مهما كان حقـيراً من ظالمه ولو كان من اعظم رجال الخلافة والعدل كما تعلم يحبب الملك للرعية ويجعله آمناً من شرّ اشرارها حتى روي ان بعض اخصائه وجدوه نائمـاً في عرض الفضاء فخافوا عليه وايقظوه وقالوا له كيف تأمن ان تنام في هذا المحل وانت أمير المؤمنين فقال كلمته الذهبية المشهورة « عدلت فأمنت فنمت »

ولقد كتب الـكتاب كثيراً في عهد الامام عمر ووصفوا فتحه وحكمه وعدله وفضله وبره مما لو جمع في كتاب واحد لكان مجلدات ضخمة وحقهم ذلك لان المسلمين لم يحكمهم امام كعمر وفي مثل عدله وحزمه وشوكتـه ومجده وسعة صدره على الاطلاق

امن الامام عمر رضي الله عنه من شرّ الناس لانه عدل في الناس حتى اصبحوا يفتدونه بنفوسهم واموالهم واعراضهم الا ان ذلك لم يرد عنه المقدور فابتدره واحد من آل الفرس يسمى ابو لؤلؤة وهو غلام المغيرة بن شعبة فطعنه ثلاث طعنات فكانت هي القاضية عليه

ولقد بحث اكثر المؤرخين في الدافع الذي دفع هذا الملعون الى ارتكاب مثل هذا الاثم الفظيع في أعدل حاكم في الوجود وافضل امام رحيم فقال قوم انه كان قد طلب من الامام مالاً فلم يعطه وقال غيرهم غير ذلك

والبداهة تدلنا على ان مقتل الامام قد تسبب عن حقد سياسي وعامل اجتماعي فان قواد عمر رضي الله عنه قد افتتحوا البلدان ودوخوا الممالك واخضعوا لشوكة الاسلام الامم والشعوب والمدقق في تواريخ الفرسيين لذلك العهد يراهم دون الروم الذين خضعوا لحكم الاسلام نقمة على الفاتحين. وذلك لان سكان بلاد الروم كانوا في اختلاف ديني كبير مع ملوكهم وكانوا يلاقون منهم كل حيف وجور حتى توصل هؤلاء الملوك الى الضغط على افكار الرعايا ومعتقداتهم وكانوا مختلفي الاجناس بين سريان وكلدان وعربان وروم اما أهل المملكة الفارسية فقد كانوا اصحاب لغة واحدة ودين واحد وجنسية واحدة ولذلك لما دالت دولتهم وتضعضع ملكهم وخضعوا لصولة الاسلام وكانت السلطة وقتئذ عربية محضاً احفظهم ذلك على المسلمين واضمروا للخليفة الذي قهرهم الشر ونفذوا هذه الفكرة الشيطانية على يد ابي لؤلؤة ذلك العبد الفارسي عليه لعنة الله

هذا هو سرّ مقتل الامام عمر الذي كانت حياته كلها جهاداً في سبيل الاسلام ومات شهيد هذا الدين الحنيف فلا بدع اذا رأينا في التاريخ ان

الناس عند ما بلغهم نبأ مقتل الامام هاجوا وماجوا واضطربوا وصاحوا بالخسارة المسلمين والاسلام وكأن المرء حيث سار في جنبات المدينة المنورة لا يرى الا نواحاً وعويلاً كان القوم قد فقدوا كافليهم ومعيليهم

طعن الامام عمر في المسجد وهو يصلي الصبح فحمل الى بيته حيث أتاه الطبيب وانبأه باستفحال الخطب ثم سأل الامام عمن قتله فقيل له ابولؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة فهلل الامام فرحاً وقال « الحمد لله الذي لم يقتلني رجل يحاجني بلااله الا الله يوم القيامة »ثم دخل على الامام المهاجرون وقالوا يا أمير المؤمنين استخلف علينا قال والله لا احملكم حياً وميتاً ثم قال « ان استخلفت فقد استخلف من هو خير مني يعني ابا بكر رضي الله عنه وان اودع فقد ودع من هو خير مني يعني النبي صلى الله عليه وسلم » فقالوا جزاك الله خيراً يا امير المؤمنين

ولما شعر الامام بحشرجة الموت في صدره اوفد ابنه عبدالله الى عائشة رضي الله عنها يستأذنها ان يدفن في بيتها بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوار ابي بكر رضي الله عنه فقالت حباً وكرامة ثم قالت له يا بنيّ ابلغ عمر سلامي وقل له لا تدع امة محمد بلا راع استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملا فاني أخشى عليهم الفتنة فلما عاد عبدالله وانبأ اباه بما قالته عائشة رضي الله عنهما فقال ومن تأمرني ان أستخلف لو أدركت ابا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته فاذا قدمت على ربي فسألني وقال لي من وليت على أمة محمد قلت اي ربي سمعت عبدك ونبيك يقول « لكل أمة أمين وأمين هذه الامة ابوعبيدة بن الجراح » ولو ادركت معاذ بن جبل استخلفته فاذا قدمت على ربي وسألني من وليت على أمة محمد قلت اي ربي سمعت

عبدك ونبيك يقول « ان معاذ بن جبل بين يدي العلماء يوم القيامة » ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته فاذا قدمت على ربي فسألني من وليت على أمة محمد قلت اي ربي سمعت عبدك ونبيك يقول « خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين » ولكني ساستخلف النفر الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض قال هذا وطلبهم اليه وهم علي ابن ابي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن عبد الله وسعد بن ابي وقاص وعبدالرحمن بن عوف رضوان الله عليهم وكان طلحة غائباً فلما اجتمعوا لديه قال لهم يا معشر المهاجرين الاولين اني نظرت في امر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً فان يكن بعدي شقاق او نفاق فهو فيكم تشاوروا ثلاثة أيام فان جاءكم طلحة الى ذلك فحبذا والا فاعزم عليكم بالله ان لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم فان أشرتم بها الى طلحة فهو لها أهل وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التي تشاورون فيها فانه رجل من الموالي لا ينازعكم امركم وأحضروا معكم من شيوخ الانصار وليس لهم من امركم شيء واحضروا معكم الحسن بن علي وعبدالله بن عباس فان لهما قرابة وأرجو لكم البركة في حضورهما وليس لهما من امركم شيء ويحضر ابني عبد الله مستشاراً وليس له من الامر شيء

قالوا ان في ابنك للخلافة موضعاً فاستخلفه فانا راضون به فقال حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة قال هذا ثم مال الى ابنه عبدالله وكان واقفاً عند رأسه وقال له اياك ثم اياك لا تتلبس بها ثم قال ان استقام امر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه وان استقام اربعة واختلف اثنان فاضربوا عنقيهما وان استقام ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا الى ابني عبدالله

فلايّ الثلاثة قضى فالخليفـة منهم وفيهم فان ابى الثلاثة الاخر ذلك فاضربوا اعناقهم . فقال قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدلّ فيها برأيك ونقتـدي به فقال

والله ما يمنعني ان استخلفك ياسعد الا شدتك وغلظتك مع انك رجل حرب وما يمنعني منك ياعبد الرحمن الا انك فرعون هذه الامة وما يمنعني منك يازبير الا انك مؤمن الرضاء كافر الغضب وما يمنعني من طلحـة الا نخوته وكبره ولو وليها وضع خاتمه في أصبع امرأته وما يمنعني منك ياعثمان الا عصبيتك وحبك قومك وأهلك وما يمنعـني منك يا علي الا حرصك عليها وانك أحرى القوم ان وليتها ان تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم

هذه هي الكلمات الدرية التي فاه بها الامام عمر رضي الله عنه وهو على فراش الموت ومنها نستفيد اولاً ان الامام كان يرى في الخلافة غير ما يراه محبو التسيد والتسلط فكان يراها عبئاً ثقيلاً على عنق الذي يقوم بها امام الله عزّ وجل ثانياً كان يرى ان الاستخلاف مما يحمله على حمل عبء الخليفة العتيد ان هو اساء في عمله الى المسلمين. على ان الامام كان يعرف كل واحد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيئته على انه كان اميل الى الامام عليّ كرم الله وجهه لولا ما يعلم من حرصه على الخلافة ومثل الامام ما كان يخفى عليه ما وراء هذا الحرص من الاحن والويلات مما ايدته الايام

على ان المدهش المعجب الذي يضع الامام عمر باعلى مراتب الفضل هو تأبيه عن مبايعة ولده عبد الله وتحذيره له عن قبول الخلافة فلله دره من خليفة صالح وحكيم كفر بنفسه في مصلحة المسلمين وحباً بسلامتهم . نعم ان عبد الله بن الخطاب كان من خيرة شباب المسلمين في ذلك العصر ولو تولى

الامر لبايعه اصحاب رسول الله صلى عليه وسلم مختارين كما قالوا في حضرة ابيه ولكن من كان يأمن انتقاض المسلمين عليه وقيامهم ضده . وفوق ذلك فان الامام عمر ما كان يرى في الخلافة المجد والعلاء والسلطة والفخر بل كان يرى فيها العمل الواجب للخير العام والسهر الدائم على تعزيز مجد الاسلام وان كل تواني في هذا السبيل يعود على الخليفة بالمسئولية في يوم الدين الرهيب

وفي الختام نقول خليق بالمسلمين اذا ذكروا الامام عمر رضي الله عنه ان يذكروا العدل باسمى معانيه والفضل بازهى مجاليه والحزم وقد كان حزوماً والعزم وقد كان عزوماً وهو الامام الاكبر الذي اعزّ الله به هذا الدين وايد بحسن سياسته المسلمين

## الفصل الرابع والعشرون

### خلافة عثمان بن عفان

بويع عثمان بن عفان رضي الله عنه بالخلافة ولا عيب فيه كما قال الامام عمر الا تعصبه لعصبيته وأهله فكأنّ ذلك الامام الحكيم كان عارفاً بكل ما سيجري بعده ولذلك لم يبت حكماً في امر الخليفة العتيد بل ترك الامر شورى للباقين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويجب ان نعلم قبل كل شيء اهمية هذه العصبية التي تخوف منها الامام عمر رضي الله عنه وحسب لها الف حساب وحساب وما امهل ان قال لسيدنا عثمان في وجهه ما منعني عن استخلافك الا عصبيتك

ان بني هاشم وبني امية هما فخذان من قريش بينهما عمومة وعصبية على ان

الامويين كانوا اصحاب الرأي والحكم والصولة والرئاسة والزعامة في الوقت الذي ولد فيه نبينا العربي الهاشمي صلى الله عليه وسلم ولذلك عند ما بعثه الله هدىً للعالمين كان بنوأمية في مقدمة محاربيه رغبة بالمحافظة على مركزهم السياسي لانهم قدروا انه صلى الله عليه وسلم لو ساد لحلّ هو وآله في المحل الارفع في هذه الامة وقد ثبتوا على محاربته الى النهاية وما ارتدوا عنه الا بعد ان لم يبق فيهم من يقف في وجهه وكان آخر من اسلم منهم ابو سفيان وولداه

على ان سيدنا عثمان رضي الله عنه كان من السابقين للاسلام خلافاً لقومه فان الله جلّ وعلا فتح عن بصيرته واراه نور الحق متلألئاً فاتبعه وترك ظلمات الضلال ومن فيها وكان من اصحاب رسول الله المقربين الذين مات وهو عنهم راض

على ان بنوأمية منذ غلبوا على امرهم ودخلوا الاسلام اخذوا يسعون وراء التسلط والتسيد وكان معاوية في مقدمة الامويين سعياً وراء المجد واستعداداً للارتقاء . فلما اسلم يوم فتح مكه استخدمه نبينا صلى الله عليه وسلم للكتابة وحضر واقعة حنين . ثم سار على عهد سيدنا ابي بكر مع اخيه يزيد في السارية التي سارت الى فتح الشام

ولما كتب الله للاسلام بالفتح عين سيدنا ابو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن ابي سفيان عاملاً له على الشام فاغتالته المنون بعد قليل فبادر الصديق وعين اخاه معاوية وكان معه في الشام عاملاً للخلافة ويظهر ان سيدنا ابا بكر اراد بهذا التعيين ان يبقي معاوية بعيداً عن مركز الخلافة من جهة وان ينتفع بدهائه بوجوده في الشام وهكذا انتفع به واتقى اذاه في وقت واحد

وما تربع معاوية على دست ولاية الشام حتى اخذ يمهد عدته للخلافة

فجعل يقلد ملوك الروم بالعظمة والسؤدد والحاشية والخدم والحشم وجمع المال مما كان ينفر منه المسلمون ولا سيما الصحابة الفخام رضوان الله عليهم وجعل في الوقت نفسه يستميل اليه القرشيين بالعطايا والمنح ويتخذهم اخصاء له

ولما مات سيدنا ابو بكر وتولى الخلافة سيدنا عمر بن الخطاب اقرّ معاوية على الشام ويظهر انه لم يكن له طاقة على عزله لاستفحال امره من ذلك العهد وفي كتب التاريخ كثير من الحوادث والاخبار الدالة على هذا الرأي يستنتجها الحكيم لدى اقل تأمل وامعان

ويظهر ان اجماع الصحابة بعد موت سيدنا عمر على سيدنا عثمان رضي الله عنه قد تمّ بتأثير معاوية نفسه يدلك على ذلك اجماع الناس على اختياره دون سواه ناسين الامام علي كرم الله وجهه وفضله وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. يدلك على ذلك ما رواه المؤرخون من ان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تلثم في اليوم الثالث من وفاة الامام عمر وخرج الى الناس يستشيرهم وهم لا يعرفونه فيمن يريدون ان يكون الخليفة فلم يلق احداً يستشيره او يسأله الا ويقول عثمان . وهكذا كان المسلمون يطلبون عثمان دون صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه وهكذا بايعوه بعد ان اشترط عليه ابن عوف شرط عمر ان لا يبايع واحداً من بني امية

ولما تربع الامام عثمان على أريكة الخلافة احبه الناس كثيراً وفضلوه على الامام عمر رضوان الله عنهما لان الامام عمر كان رجلا شديداً قد ضيق على قريش أنفاسها فلم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً اعظاماً له واجلالا وتأسياً به واقتداء بفضله فلما وليهم عثمان بن عفان فاذا هو رجل لين العريكة كثير المسامحة جواد على قريش بالمال واللباس والطعام ولا يستعبد الانسان غير الاحسان

ظل الامام عثمان رضي الله عنه بهذه الاخلاق الراضية في مدى الست سنوات الاولى من خلافته ولم يقتصر فيها على تحدي آثار الامام عمر بالعدل حتى اضاف اليه اللين وحسن السياسة وكان كما قلنا كثير الجود والكرم على المسلمين فيقف فيهم وينادي بصياحة ونضارة وجهه قائلا « ايها الناس اغدوا على اعطياتكم » فيهبّ الناس ويأخذون انصبتهم اكثر مما كانوا يؤملون. ثم يقول الامام « ايها الناس اغدوا على كسوتكم » فيغدون فيجاء بالحلل وتقسم بينهم. ثم يقول « يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل » فيغدون فيقسم بينهم. ثم يقول « يا معشر المسلمين اغدوا على الطيب » فيغدون ويقسم بينهم الطيب والمسك والعنبر

هكذا عاش المسلمون في الست سنوات الاولى لعهد سيدنا عثمان رضي الله عنه بعد ان كانوا على عهد الامام عمر رضي الله عنه لا ينالون الا الزهيد من المال مما يكفيهم للمعيشة القشفة وانما كان الامام عمر يبخل بمال المسلمين على نفسه وعلى المسلمين لان الملك على عهده كان قليل الموارد كثير النفقات خلافاً لعهد الامام عثمان الذي اخذ يجني خيرات ما زرعه عمر في فتوحاته

---

## الفصل الخامس والعشرون

### ثاني ثورة في الاسلام

اذا اعتبرنا حركة اهل الردة التي حدثت على اثر موته صلى الله عليه وسلم ثورة فهي اول ثورة حدثت في الاسلام وقد ردَّ جماحها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بحزمه وحسن عزيمته على مارأينا وقبض على اعنة الامر

بيد من حديد فلم يترك مجالا للقيل والقال

ثم تولى الخلافة الامام عمر رضى الله عنه على شدته فلم يجرأ على عهده من يحرك ساكنا في الاسلام او يأتي عملا مضراً بمصالح المسلمين وكان الجميع يخافونه ويتهيبونه بمقدار ما كانوا يحبونه ويحترمونه لانه كان شديداً بالحق لايخاف فيه ملام اللائمين بمقدار ما كان شفوقاً على المسلمين

ثم انتقلت الخلافة ليد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان مجملاً باللطف والسماحة والطلاقة وقد كثرت في ايامه الخيرات والبركات فاكثر من توزيعها على المسلمين بعد ان كان سيدنا عمر لايسرف ولا يسمح للمسلمين بالاسراف فانتقل الناس فجأة من معيشة التقشف والتقتير الى معيشة الاسراف والتبذير فبطروا وكان نتيجة بطرهم ثورتهم الثانية التي انضت الى مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه وارضاه

وهذه الثورة أثرت تأثيراً كبيراً على حاضر المسلمين ومستقبلهم حيث انتقلت بها الخلافة من صفتها الدينية الى الصفة السياسية البحتة وقامت على أثرها الخلافة الاموية التي جعلت عاصمتها الشام وانحصر فيها وراثة الخلافة بالابناء والاحفاد بعد ان كان الامر شورى بين المسلمين وقد كان ذلك بقضاء الله وقدره لامر يريده الله عزّ وجلّ

نعم لاننكر ان عهد سيدنا عثمان كان اوفر خيراً من عهد سيدنا عمر رضي الله عنهما لما كان بين العصرين من الاختلاف لان الفتوحات التي تمت على عهد الفاروق اخذت تمر الاثمار اليانعة على عهد بن عفان ومن الضرورة ان يغنى الشعب المالك بنسبة الغنى الذي يكون في المملكة ولكن الذي اضرّ الحالة وهيأ اسباب هذه الثورة هو الطفرة اي الانتقال فجأة او في وقت

قصير من حال الى حال وزد على ذلك استعداد الامويين واجتهادهم وجهادهم في سبيل الخلافة واعدادهم لهذا الامر عدته خلافاً لاصحاب رسول الله وآل بيته صلى الله عليه وسلم الذين كانوا متمسكين كل التمسك بحقوق الخلافة على الشكل الشوروي الذي وضعه لها رسول الله وسار عليه ابو بكر وعمر رضي الله عنهما وارضاهما

كان المسلمون لذلك العهد متساوين في كل شيء والامر بينهم شورى على المبدأ الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ان لا يفضل المسلم اخاه المسلم الا بالتقوى . وعلى هذه القاعدة الحكيمة سار المسلمون هذه الخطى الواسعة في توسيع ملكهم واعلاء كلمة الاسلام في الفتوحات والغزوات والتسود على الممالك والامصار

وكأن الثروة التي فازوا بها ازادت في بطرهم فازدادوا تمسكا بطلب حقوقهم وما عادوا يتساهلون بشيء منها وكان فيما لهم من الدالة على خليفتهم وامرائهم والحرية في طلب حقوقهم ما يجرؤهم على القيام لمراجعة اهل الحلّ والعقد في كل عمل يأتونه ولا سيما اذا كان فيه ما يفضل بعض المسلمين على بعض مهما كانت صلتهم بالخليفة وقربهم منه وانتماؤهم اليه وهذا هو سر الثورة التي افضت الى قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه وانجلت عن تسليم زمام الخلافة للامويين ملكا حلالا يتوارثونه خلفا عن سلف

وكان سيدنا عثمان في مدة الست سنوات الاول من خلافته على احسن ما يكون الخلفاء ويسود الامراء كان ساهراً على مصلحة المسلمين منفذاً شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل تدقيق وتحقيق عاملاً على مرضاة الله عزّ وجلّ ومرضاة رسوله ولا يرجو من خلافته الا جميل المثوبة في

على ان هذا الخليفة الكبير كان حسن الطوية سليم النية طيب القلب كثير الحلم سريع التصديق لكل ما يقال له وكان من حوله بنواميه وهم القبيلة التي كانت قبل الاسلام سائدة على الحجاز وذات الحول والطول في هاتيك الاصقاع. فكان هؤلاء يغرون الامام عثمان ليفضلهم على من سواهم في الاعطيات والاعمال وما زالوا به حتى استمالوه اليهم بحسن نيته وطيب قلبه. وهكذا اخذ يميل الى قومه واهل عصبيته ويفضلهم على غيرهم من القرشيين في الاعمال والولايات والانصبة من الجزية والغنائم وما زالوا بهم حتى فضلهم على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وانصاره واولادهم فكبر ذلك على هؤلاء الذين كانوا يعدون انفسهم مغبونين وهم اصحاب الحق الصراح الذي لا يشاركهم فيه مشارك واخذوا يتمنتون على الخليفة وينكرون عليه عمله وينازعونه في كل عمل يأتيه في خلافته

وكان فوق ذلك في القرشيين حزب يرى احقية الخلافة للامام علي كرم الله وجهه وان الامام عثمان ما نالها عن حق بل عن تغلب بمساعي معاوية والي الشام وكان رئيس هذا الحزب محمد بن سيدنا ابي بكر وربيب الامام علي وقد نشأ وتربى في بيته فضلا عمن كان يطمع بالخلافة ويطمح ببصره اليها من وجوه القرشيين الذين قامت قيامتهم على الامام عثمان واضمروا لشخصه الشرّ والضرّ وقلبوا له ظهر المجن صراحة في وجهه وضمنا بتحريش المسلمين عليه

وكان شرر هذا الشرّ يتطاير مع توالي الايام وتعاقب الاعوام حتى اذا مرت الست سنوات الثانية على خلافة الامام عثمان كان الكاس قد طفح

ولم يبق في قوس الاصطبار منزع ولا سيما فان القرشيين انفسهم الذين كانوا مشتتين في المدن والامصار جاءوا عامئذ المدينة المنورة في موسم الحج وانضموا الى جموع الثائرين ضد عثمان وشجعوهم على شق عصا الطاعة والعصيان

ولما رأى الامام عثمان استفحال الخطب هاله الامر فدخل الجامع وعلا المنبر خطيباً فحمد الله واثنى عليه ثم قال « اما بعد فان لكل شيء آفة ولكل نعمة عاهة وان آفة هذا الدين وعاهته هذه الملة . قوم عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون. اما والله يامعشر المهاجرين والانصار لقد عبتم عليّ اشياء ونقمتم اموراً قد اقررتم لابن الخطاب مثلها ولكنه وقمكم وقمعكم ولم يجترئ احد يملأ بصره منه ولا يشير بطرفه اليه اما والله لانا اكثر من ابن الخطاب عدداً واقرب ناصراً واجدر »

الى ان قال « اتفقدون من حقوقكم شيئا ؟؟ مالي لا افعل في الفضل ما اريد فلا كنت اماما اذاً. اما والله ماغاب عليّ من عاب منكم أمراً اجهله ولا اتيت الذي اتيت الا وأنا اعرفه »

والذي يتمعن في خطاب الامام عثمان هذا يرى انه كان يشكو من قومه العنت على امور يرى ان لا حق لهم بها وما ظهرت عليهم الا بعد ان ابطرهم الخير الكثير والفضل الغزير الذي تنعموا به على عهده وان الامام عمر كان يأتي مثلها وهم ساكتون صامتون على اننا نرى في لهجة خطابه من عبارات التهديد عند اشارته الى الامويين بقوله « انا اكثر من ابن الخطاب عدداً وأقرب ناصراً واجدر » ما يؤيد ظننا بان الامام عثمان كان مدفوعاً من عائلته الى مقاومة الثورة عوضا من العمل على اطفائها بالتي هي أحسن عملا بمبدأ صاحبيه ابي بكر وعمر الذين كانا يصغيان الى كل شكوى ولا يأتيان عملا

بغير مشورة اصحاب رسول الله وانصاره رضوان الله عليهم فاين هما من قول سيدنا عثمان في خطابه هذا وهو « ما غاب عليّ من عاب منكم امراً اجهله ولا اتيت الذي اتيت الا وانا اعرفه » فكأنه في هذا اراد ان يتخذ المسئولية كلها على نفسه دون قومه مما ازاد في هياج الراي العام عليه

وبينما كان الامام عثمان في احرج مواقفه قدم معاوية ذلك الداهية الى المدينة المنورة متوعداً مهدداً وفي حال وصوله قابل سيدنا عثمان ثم انصرف عنه فدخل مجلساً فيه الامام علي بن ابي طالب وطلحة بن عبد الله والزبير ابن العوام وسعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر فقال لهم « يا معشر الصحابة اوصيكم بشيخي هذا خيراً فوالله لئن قتل بين اظهركم لاملأنها عليكم خيلاً ورجالاً » ثم اقبل على عمار بن ياسر وقال له «يا عمار ان بالشام مائة الف فارس كلّ يأخذ العطاء مع مثلهم من ابنائهم وعبدانهم لا يعرفون علياً ولا قرابته ولا عماراً ولا سابقته ولا الزبير ولا صحابته ولا طلحة ولا هجرته ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ولا يتقون سعداً ولا دعوته فاياك يا عمار ان تقع غداً في فتنة تنجلي فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل علي » ثم اقبل على بن عباس فقال له « يا ابن عباس انا كنا واياكم في زمان لا نرجو فيه ثواباً ولا نخاف عقاباً وكنا اكثر منكم فوالله ما ظلمناكم ولا قهرناكم ولا اخرناكم عن مقام تقدمناه حتى بعث الله رسوله منكم فسبق اليه صاحبكم فوالله ما زال يكره شركنا ويتغافل به عنا حتى ولي الامر علينا وعليكم ثم صار الامر الينا واليكم فاخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه ثم غير ننطق ونطق على لسانه فقد اوقدتم ناراً لا تطفأ بالماء » وهكذا تجول معاوية على كل ذي شأن وهدده واظهر له ما في نفسه من الطموح الى نصرة عثمان على كل من

يناويه مهما كان مقامه في الهيأة الاجتماعية الاسلامية وقتئذ فكان ذلك مدعاة لازدياد الشر. ثمّ سار معاوية لبيت عثمان واختلى به وعرض عليه ان يقتل علي وطلحة والزبير زعماً منه انهم اصل الشرّ واس البلاء فرفض طلبه فعرض عليه ان يرسل لحمايته اربعة آلاف فارس من اهل الشام فقال عثمان ومن اين ارزقهم ؟ قال من بيت مال المسلمين. قال عثمان ارزق اربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحقن دمي؟ لافعلت هذا ابداً .فعرض عليه معاوية حينئذ ان يشتت شمل هؤلاء الصحابة في الامصار فقال عثمان سبحان الله شيوخ المهاجرين وكبار اصحاب رسول الله وبقية الشورى اخرجهم من ديارهم وافرق بينهم وبين اهلهم وابنائهم لا افعل ذلك ابداً . فعجز معاوية في الاخير ولم يبق له حيلة فقال يا امير المؤمنين اجعل لي اذاً الحق بان اطالب بدمك اذا قتلت قال عثمان نعم هذا لك ان قتلت فلا يطلّ دمي

ثم خرج عثمان فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وقال « امابعد ايها الناس ان نصيحتي كذبتي ونفسي منتني وقد سمعت رسول الله يقول ( لا تمادوا في الباطل فان الباطل يزداد من الله بعداً من اساء فليتب ومن أخطاء فليتب ) وانا أول من اتعظ والله لئن ردني الحق عبداً لانتسبن نسب العبيد ولا كونن كالمرقوق الذي ان ملك صبر وأن اعتق شكر » فما كان لهذا الاعتذار الرقيق تأثير على الناس لانهم كانوا قد تشبعوا من كرهه وتشربوا بغضه

اما الذي استدرك على سيدنا عثمان وكان سبباً لانقلاب الناس عليه فهو اقطاعه خمس افريقيا لمروان بن الحكم نسيبه وتطاوله في بنيان القصور الشامخة ترفاً وافشاؤه الاعمال والولايات بين اهله وبني عمه من بني امية وهم حدثان وولدان واغضاؤه عما كانوا يجترمونه من الآثام واهماله المهاجرين

والانصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم في شيء واستغناؤه برأيه عن رأيهم في تدبير شؤون الخلافة وادراره القطائع والارزاق والاعطيات على اقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه الصلاة والسلام ولا يغزون ولا يذبون وما كان من قسوته في القصاص حتى استبدل الدرة والخيزران بالسوط

وبالاختصار كان الناس الا الامويون ناقمين على سيدنا عثمان اشدّ النقم وكانوا يطلبون استقالته او خلعه او اهلاكه وما زالوا كذلك حتى حاصروه في بيته ومنعوا عنه الماء وافضى الحال ان دخل محمد بن بكر في حديث طويل على عثمان مع اثنين من اصحابه خلسة من على السطح ثم تبعهم آخرون وقتلوه شرّ قتلة ونكلوا به بلا رأفة ولما نمي الخبر الى علي وطلحة والزبير وغيرهم من كبار الصحابة عظم عليهم الخطب ولا سيما الذين عرفوا اما سيجرّ مقتله من الويلات على المسلمين فحسبوا لذلك الف حساب وحساب

---

## الفصل السادس والعشرون

### استخدام الظروف والصدف

كان مقتل الامام عثمان رضي الله عنه سبباً لتولي معاوية الخلافة وخيبوبة الامام علي وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم فان هذا السياسي المحنك الكثير الدهاء ما كان يظنّ ان الظروف والصدف ستخدمه الى هذا الحدّ وما خطر له ان عثمان يقتل في المدينة وفيها مثل الامام علي وطلحة والزبير وغيرهم من اصحاب رسول الله بل بالعكس كان يظنّ ان القوم سيضايقونه مضايقة ويحملونه بالقوة على الاستسلام لما يريدون في شؤون الخلافة ويصدونه

عن اعطياته لقومه وتعيينه ابناء عشيرته الامويين في امارات واعمال الخلافة او اذا لم يمكن ذلك سيحملونه على الاستقالة ولذلك لما عاد الى الشام اخـذ يستعد لنصرة عثمان وتأييده والتنكيل بمناوئيه وربما خطر له بمساعدته هـذه اذا لم يكن التعجيل في فض الثورة فالتعجيل في الفتنة وارسل اليه اربعة آلاف فارساً بقيادة يزيد بن اسيد على ان هذه السرية لم تكد تخرج من الشام حتى لقيها النعمان بن بشير الانصاري واخبر قائدها بما كان من امر مقتل عثمان فعادت معه الى معاوية

وكان النعمان هذا يحمل رسالة من نائله بنت القرافصة احـدى ازواج الامام عثمان وقد شهدت موقعة قتله وقطعت اصابعها في الدفاع عنه وقـد كتبت له كل ما جرى بتفصيله واتبعت مع كتابها قميص عثمان الذي قتل فيه وهو مضرج بالدم وعقدت في زر القميص خصلة شعر كان نتفها محمـد ابن ابي بكر من ذقنه

فما امهل معاوية ان تناول ذلك الكتاب والقميص حتى سار الى الجامع فجمع الناس وعلا المنبر ونشر عليهم القميص وذكر ما صنع القوم بعثمان وما زال يشخص لهم الحالة بفصاحته حتى بكوا وشهقوا وكادت نفوسهم تزهق ولما رأى منهم تأثرهم وانفجاعهم قال لهم او ما من الواجب ايها المسلمون ان نطالب بدمه؟؟ فصاحوا جميعهم بصوت واحد قائلين « هو ابن عمك وانت وليه ونحن المطالبون معك بدمه » قالوا هـذا وتسابقوا اليه وكان قد نزل عن المنبر وبايعوه بالخلافة ومن ذلك اليوم أخذ يسعى في تنفيذ نواياه وارسل الوفود الى اجناد الشام طلباً للمبايعة

والذي ساعد معاوية على هذا الامر هو اقناعه الناس بان سيدنا علي ومن

معه من الصحابة هم الذين عملوا على قتل عثمان طمعاً بالخلافة فدمه برقابهم وكان يؤيد حجته هذه بقوله انهم لو شاؤا لحقنوا دمه وهم القادرون

وفوق ذلك فان اقدام محمد بن ابي بكر على قتل عثمان وهو ربيب الامام علي كان يحصر شبهة القتل بالامام فلا عجب اذا صدق الناس هذه التهمة والصقوها بالامام كما ان معاوية كانت هذه هي حجته الكبرى

اما نحن فالذي نراه من ثنايا التاريخ واختلاف اقوال المؤرخين هو ان الامام علي لم يرد للامام عثمان القتل ولكنه مع الصحابة ووجوه القوم كانوا يريدون ان يتنازل عن الخلافة وكانوا يرون تنازله عنها حقاً لاعتقادهم انه كان يتجاوز في خلافته السنن الاسلامية لما كان يدوس حقوقهم باستبداده بالخلافة بغير مشورتهم الى آخر ما اخذوه عليه

ولقد حاولوا كثيراً أن يقنعوه بالتنازل فكان يأبى عليهم ذلك ويقول « لا انزع ثوباً البسنيه الله تعالى »

وكان الامام عثمان باديء بدء غير عارف بخطر الحالة وقد كان معتقداً انه على الحق في كل ما عمل وان اصحابه لم ينازعوه ويقاوموه الا حسداً ولذلك كان يزداد استخفافاً بهم على انه انتبه في الاخير الى خطأه واخذ يعتذر ويعد فلم يفده ذلك نفعاً لان الثورة كانت قد تهيأت والامر قد تمّ والكارهون لولاية عثمان ما عادوا يرجعون عنه من غير ان ينالوا منه منالاً خوفاً على انفسهم من غدر الامويين وقد اصبحوا اصحاب الحول والطول والكلمة النافذة المسموعة

ومما يبريء الامام علي ايضاً من تهمة قتل عثمان هو ارساله الحسن والحسين لبيت عثمان بعد ان حاصروه وايقافه اياهما على الباب وايصاؤه لهما ان لا يدعا احداً يدخل المنزل وفيهما رمق من الحياة ولذلك اضطر محمد بن ابي

بكر ان يدخل على عثمان من الاسطحة خلسة بغير علم الناس

اما الذي حمل محمد بن ابي بكر على مناوأة عثمان فهو لانه كان كثير المطامع وكان يريد ان يتولى الامر مربيه الامام علي ليحظى على امارة مصر ولما جاء المصريون المدينة شاكين من عامل عثمان عضدهم محمد بن ابي بكر والجئوا بالاخير الامام عثمان ان يعين محمداً لامارة مصر فكتب له كتاباً في ذلك وسلمه له وما كاد محمد ابن ابي بكر يخرج من المدينة مع المصريين حتى لقي احد غلمان عثمان ففتشه ووجد معه امراً ممهوراً بخاتم عثمان يأمر فيه عبدالله بن ابي سرح عامله في مصر ان يقتل محمداً ابن ابي بكر واصحابه فعادوا الى المدينة وفي نفس محمد ان ينتقم لنفسه من عثمان وثبت ان عثمان لم يكتب هذا الكتاب بل الذي كتبه هو مروان بن الحكم الذي كان كثير التأثير على عثمان وحافظ ختمه فعدوا ذلك على الامام عثمان ضعفاً وسوء سياسة حتى يسلم خاتمه الى واحد من ابناء عمومته مثل مروان

وقد اشير على الامام علي ان يترك المدينة عند ما اشتدت ازمة الثورة فرفض وكان هذا خطأ منه ولو فعل لما كان ثمت من سبيل الى اتهامه بدم عثمان

وكيفما كانت الحالة فقد خدمت الظروف والصدف معاوية فتمكن من اقناع المسلمين ولاسيما في الشام ( وقد كانوا يتمتعون بنعمه ) بان قاتل عثمان هو الامام علي بالاتفاق مع الصحابة وان من الواجب ان يثأر منه ولا يزيل الدم الا الدم

وما كان معاوية وهو صاحب الغرض الاسمى لالصاق تهمة القتل بالامام علي قائماً باتهامه وحده بل اكثر من في المدينة نفسها بعد مقتل

عثمان قد انقلبوا على الامام علي وقاموا ضده لان قتل الخليفة عثمان على هذا الشكل من الفظاعة لم يكن بالامر اليسير الذي يسكت عنه الناس. حتى ان سيدتنا عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها بعد ان كانت على حياة عثمان في مقدمة الناقمين عليه والكارهين لولايته تحضّ الناس للقيام في وجهه قد تحولت في الاخير الى المطالبين بدمه وقامت بنصرة انصاره. وكانت هذه الحركة مفيدة كل الفائدة لمعاوية وهكذا خدمت هذا السياسي الداهية الظروف والصدف من كل وجه

وكان عمرو بن العاص وهو لا يقلّ بدهائه عن معاوية ناقماً على الامويين لان عثمان كان قد عزله عن مصر وولى مكانه عبد الله بن ابي سرح فلما قتل عثمان وبويع الامام علي بالخلافة وعين الامام محمد بن ابي بكر قاتل عثمان عاملاً على مصر لم يرَ بداً من الانتماء لمعاوية ايضاً حباً بالرجوع الى مصر التي كان طامعاً بها ولا يحلم الا بها

ولم يتأخر معاوية عن استمالة عمرو بن العاص اليه فاستقدمه واسترضاه ووعده لو هو ساعده على الخلافة لاقطعه مصراً وهكذا اصبح عمرو ابن العاص من اكبر معضدي معاوية وهو ثاني رجل بالدهاء بعد بن ابي سفيان بالاجماع .

فنرى مما تقدم ان الاقدار بجملتها كانت تعاكس الامام علي في خلافته كما كانت تعضد اطماع معاوية فلا عجب اذا انتصر هذا على الامام وقبض على زمام الخلافة وحصرها في اعقابه من بعده

والرأي قبل شجاعة الشجعان　　　هو اول وهي المحلّ الثاني

# الفصل السابع والعشرون

## خلافة الامام علي بن ابي طالب

لم يمرّ على المسلمين منذ الهجرة زمن شدة كالزمن الذي قتل فيه سيدنا عثمان وبويع فيه سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنهما لان القلاقل والفتن كانت قد انتشرت في كل المملكة الاسلامية من جزيرة العرب الى الشام الى مصر الى بلاد فارس وهكذا . . .

ولولم يكن الاسلام قد قام على اساس وطيد وفيه الرجال الاكفاء لكانت هذه الثورة العامة الشاملة كافية لمحو المملكة الاسلامية من الوجود من ذلك العهد ولكن الله سبحانه الذي ارسل نبيه الامي صلى الله عليه وسلم رحمة وهدى للعالمين هو حافظ هذا الدين وملكه الى ابد الابيد ان شاء الله تعالى

في هذا الزمن المضطرب وفي هذه الظروف الحرجة وفي هذا العهد القلق والناس ثائرون ودم سيدنا عثمان رضي الله عنه لم يزل طرياً بويع الامام علي كرم الله وجهه صهر نبينا صلى الله عليه وسلم وابن عمه وربيب بيته بالخلافة. وذلك الرجل التقي البار العادل الزاهد الذي كان لا يعرف في الحق لومة لائم والذي كان لا يحابي بالوجوه ولا يعرف النفاق ولا الرياء ولا يحسن السياسة الا اذا انطبقت على آيات الكتاب البينات وكانت في جانب الحق والصدق والاستقامة طلب منه ان يسود الناس وهم ثائرون ويوحد كلمتهم وهم مفترقون تلعب بهم الاغراض وتتنازعهم الاهواء

وما تربع الامام علي على دست الخلافة المحمدية العظمى واستلم مقاليدها

العامة حتى وضع نصب عينيه ان يسيرها في الطريق التي سار فيها صاحباه الامامان ابو بكر وعمر رضوان الله عليهما وشتان بين زمنهما وزمانه على قرب العهد لما بين البيئة التي وجد فيها وتلك البيئة من البون الشاسع في كل شيء. وما كان الامام علي يجهل حرج موقفه ولكنه كان يرى قبل كلّ شيء ان من اقدس واجباته ان يرضي الله ولا يعمل الا ما فيه ارضاء دينه وتقواه وعقله وذمته بصرف النظر عما حدث في الاسلام من الانقلاب العظيم في الاثني عشر عاماً التي كان فيها الامام عثمان متربعاً على دست الخلافة وكان فيها وجوه بني امية حكام البلاد وعمالها واصحاب الامر فيها يعملون لانفسهم لا للمسلمين

وما بويع الامام علي حتى ظهر المخالفون له والناقمون عليه والمعارضون لخلافته فكانوا اصحاب الحول والطول دونه والسيادة والزعامة في خلافته وفي مقدمتهم ام المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها التي كانت على حياة عثمان ناقمة عليه ثم لم تلبث بعد مقتله ان انضمت الى المطالبين بدمه والمؤاخذين علياً بمقتله حتى انها خرجت من المدينة المنورة مع طلحة والزبير حتى لا توجد حيث يوجد الامام علي بصفته خليفةً للمسلمين فتأمل . . . .

ومن المعلوم انّ هذا الزمن الذي كان فيه الامام علي مقاوماً من كل هؤلاء الاعداء الاشداء وقد كانوا يربون على انصاره كان في هذا الزمن معاوية في الشام ينادي بأخذ الثار وقد بايعه اهل الشام على ذلك كما بايعه بعض اصحابه في مصر او الذين استمالهم اليه ممن كانوا اساس الفتنة التي افضت الى مقتل سيدنا عثمان . لان المصريين بعد ان كانوا في مقدمة الناقمين على هذا الخليفه انقسموا بعد مقتله بين مصوب ومخطي . وكان يحتاج الامام علي في مثل

هذا الزمن الصعب الى دهاء وسخاء وتغافل وتسامح وتهاون في دينه والامام كما نعلم ما كان يرضى ان يرقع دنياه بتمزيق دينه فلا عجب اذا اندحر في الاخير وفاز خصمه عليه في ميدان السياسة

وتفصيل ما جرى في الخلافة على عهد الامام علي كرم الله وجهه يحتاج الى بحث طويل وشرح كثير مما يسوء ذكره فنضرب عنه صفحاً وغاية ما نقوله ان الامام علي لم يكن متكلاً على الحيلة بل على الحق ولم يستنصر الخداع بل كان نصيره الصدق وما كان ينقصه ذلك عن تقصير وعجز بل تديناً وتهجداً لأنه كان يابى الا الحق الصراح والخدمة النصوحة ولذلك كان الناس ينفرطون من حوله لشدته ويلتفون حول معاوية لتسامحه و كرمه وسخائه ورغد العيش في قربه وشتان بين من يعمل لدنياه وبين من يعمل لاخراه

فبينما كان الامام مقتدياً بسنة عمر وابي بكر مقتراً على نفسه واهله ومانعاً اموال المسلمين عن الطامعين بها من الاهل والانسباء كان معاوية يوزع بدرات الذهب بغير حساب على كل طالب وراغب فيغوي بهذا الجود الحاتمي كل طامع والطمع برؤوس لرجال . والكرم جعلنا الله واياك من اهله هو اعظم ما تشترى به العواطف وتستأسر به القلوب وتستعبد به النفوس ولذلك كان الملتفون من حول معاوية كثيرين من القرشيين اصحاب الحول والطول والكلمة النافذة فالتفوا من حوله ونادوا به وقاموا لنصرته ناسين في جانب رغائبهم مصالح المسلمين

وكان الامام علي كرم الله وجهه قد ولى على مصر محمداً بن ابي بكر وكان ذلك من الامام حباً بالحق لان الخليفة عثمان كان اعطاه هذه الولاية ولكن هذا لم يعرفه الناس بل الذي عرفوه هو ان قاتل عثمان نفسه قد تولى مصر

وقالوا لو لم يكن ابن ابي طالب مجترماً هذه الجريمة او على الاقل راضياً عنها لما ولى قاتل الخليفة عثمان مصراً وكان من مصلحة معاوية تعميم هذه الاشاعة واشباع عقول الناس فيها ولذلك كان مريدوه يروجونها في الامصار وكان هذا التعيين من جملة الاسباب التى ابعدت القلوب عن الامام علي

وما زال الخطب يتفاقم والخلاف يتعاظم بين علي ومعاوية حتى جرد كل منهما جيشه في وجه خصيمه واقرّا على تحكيم السيوف والتقى الجيشان في صفين شمالي سوريا وتصادما وهدرت دماء المسلمين هدراً وكاد يتغلب العلويون على الامويين لو لم يعمد عمرو بن العاص الذي كان في نصرة معاوية الى الحيلة وذلك انه عند ما رأى عجز جيش الشام عن الوقوف امام جيش الامام علي اشار على معاوية ان يدعو العلويين الى امر يفرق به جمعهم فان اعطوه اختلفوا وان منعوه اختلفوا فسأله معاوية وكان اليأس قد تسرب الى فؤاده عن هذا الامر فقال ان تأمر بالمصاحف ثم تدعوهم الى ما فيها فوالله لئن قبل علي الدعوة لتفترقنّ عنه جماعته وان رده لكفره انصاره واصحابه. فدعا معاوية بالمصحف ثم دعا رجلاً من اصحابه يقال له ابن هند فنشره بين الجيشين ونادى بملء صوته « الله الله في دمائنا ودمائكم فالوازع بيننا وبينكم كتاب الله » فلما سمع العلويون ذلك رجعوا الى الامام علي وقالوا له قد اعطاك معاوية الحق ودعاك الى كتاب الله فاقبل منه. ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول « يا عباد الله بيننا وبينكم كتاب الله » ثم تلا « ألم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » وانقسم جيش علي على ان الاكثرين لم يفطنوا الى الحيلة وركنوا الى الصلح وكرهوا القتال الا الامام علي كرم الله وجهه الذي قال لهم

امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم فان معاوية ومن معه ليسوا باصحاب دين ولا قرآن انا اعرف بهم منكم . ويحكم والله ما رفعوها الا خديعة ووهناً » فلم يصغوا اليه بل اجمعوا على التحكيم وهكذا اخذ معاوية وعمرو ابن العاص يعملان كل ضروب الحيل حتى تمكنوا من خديعة امراء جيش الامام علي فاقروا على الصلح بعد عناء كثير ودهاء اكثر قد قام بهما معاوية في موقفه الحرج ولا سيما بعد ان غلب على امره وشتت جيش عليّ جيشه

ثم اختار بعد جدال طويل الامام علي ابا موسى الاشعري ومعاوية عمرواً بن العاص حكمين يحكمان في هذا الخلاف حقناً لدماء المسلمين وكتبا صكين على ان تحدث هدنة بينهما مدة حول واحد من رمضان الى رمضان وفي انقضاء هذه المدة اجتمع الحكمان بوفدين من قبل علي ومعاوية بمحل يدعى « دومة جندل » واخذا يتباحثان مدة ايام لا يقوى فيها احدهما على صاحبه وفي الاخير رأى عمرو ان يتسلح بما اشتهر عنه من الدهاء فجاء الى ابي موسى الاشعري في ذات يوم والناس قد ملت الانتظار وقال له يا ابا موسى ان قال قائل ان معاوية من الطلقاء وابوه رأس الاحزاب لم يبايعه المهاجرون والانصار فقد صدق وان قال ان علياً آوى قتلة عثمان وقتل انصاره يوم الجمل وبرز على اهل الشام بصفين فقد صدق وفينا وفيكم بقية وان عادت الحرب ذهب ما بقي فهل لك ان تخلعهما جميعاً وتجعل الامر لعبد الله بن عمر فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً ولقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه فقال ابو موسى جزاك الله بنصيحتك خيراً وكان ابو موسى لا يعدل بعبدالله بن

عمر احداً لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه من ابيه وافترقا على هذا الامر واجتمع رأيهما على ذلك

ثم ان عمرواً غدا على ابي موسى في الغد وجماعة الشهود فقال يا ابا موسى ناشدتك الله تعالى ما تقول في عثمان قال قتل مظلوماً قال فما حكم القاتل قال يقتل بكتاب الله تعالى قال فمن يقتله قال اولياء عثمان . قال عمرو فان الله تعالى يقول في كتابه العزيز « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » قال فهل تعلم ان معاوية من اولياء عثمان ؟ قال نعم قال عمرو للقوم اشهدوا وقال ابو موسى للقوم اشهدوا على ما يقول عمرو . ثم قال ابو موسى قم يا عمرو فقل بما اجتمع عليه رأيي ورأيك وما اتفقنا عليه فقال عمرو سبحان الله ايجوز لي ان اقوم قبلك وقد قدمك الله قبلي في الايمان والهجرة وأنت وافد اهل اليمن الى رسول الله ووافد رسول الله اليهم وبك هداهم الله وعرفهم شرائع دينه وسنة نبيه وصاحب مغانم ابي بكر وعمر ولكن قم انت فقل ثم اقوم فاقول فقام ابو موسى فحمد الله واثنى عليه ثم قال « ايها الناس ان خير الناس للناس خيرهم لنفسه واني لا اهلك ديني بصلاح غيري . ان هذه الفتنة قد اكلت العرب واني رأيت وعمرو ان نخلع علياً ومعاوية ونجعلها لعبد الله ابن عمر فانه لم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً » ولما انتهى ابو موسى الاشعري من خطابه قام عمرو فحمد الله واثنى عليه وقال « ايها الناس هذا ابو موسى شيخ المسلمين وحكم العراق ومن لا يبيع الدين بالدنيا وقد خلع عليا واثبت معاويه » فقال ابو موسى « مالك عليك لعنة الله » ثم اختلط الناس بعضهم وعاد الشر الى ما كان عليه وعاد الامام علي الى الكوفة وهو يعد عدته لمحاربة معاوية كما عاد معاوية الى الشام ووجه عمرواً الى مصر فافتتحها وقتل

محمد بن ابي بكر شرّ قتلة واخذ بيعة المصريين لمعاوية

وبينما المسلمون في هذه الفتنة القائمة القاعدة واذا بثلاثة رجال حتى الساعة لا يعرف ما الذي دفعهم الى حلّ هذا الاشكال بشكل غريب وذلك انهم قد اتفقوا على ان يفتكوا بالامام علي ومعاوية وعمرو بن العاص في صبيحة يوم واحد وهو يوم ١٧ رمضان لاراحة المسلمين من هذا البلاء العميم وذهب كل منهم في طريقه الا ان ما اتفقوا عليه لم يوفقهم الله له فانجلت هذه المؤامرة عن مقتل الامام علي وحده لعن الله قاتله وكان ذلك ايضاً من الظروف والصدف التي خدمت نوايا معاوية على ما اراد لان الناس بايعوا بعد الامام ابنه الحسن رضي الله عنهما وهذا كان قد سئم الفتنة فتنازل عن الخلافة بعد ستة اشهر لمعاوية وبايعه وهكذا اصبح معاوية خليفة المسلمين الشرعي من ذلك التاريخ لا ينازعه في هذا الامر منازع فانعكف على الفتح والغزو وجعل دولته عربية محضاً وحصر الوظائف والاعمال في القرشيين ولا سيما بني امية وكان يجود بالمال الكثير على الهاشميين اهل البيت استجلابا لرضاهم واسكاتاً لهم واستمال اكثرهم اليه بالمال

---

# الفصل الثامن والعشرون

## في الخلافة الاموية

لما استقرت الخلافة بمعاوية واستلم مقاليدها بغير منازع ولا مقاوم جعل مقرّ الخلافة في دمشق الشام حيث كان مقامه فيها عظيما وحيث لا يوجد من يناويه فيها وترك المدينة لمن فيها من اصحاب رسول الله واولادهم الذين لم يكونوا

راضين عن معاوية وخلافته وبعد ان بلغ مأربه واطمأنّ على الخلافة لنفسه اخذ ينتهز الفرص لمبايعة ابنه يزيد فجعل يتملق كبار القرشيين ويرشوهم بالمال والجاه ويرغبهم باللين واللطف الى ان استمال اكثرهم اليه ورضوا في هذه البيعة

وكان معاوية قد برّ بوعده فعين عمرواً بن العاص عاملا على مصر كما اسلفنا وجعل هذا القطر السعيد طعمة له فلم يتأخر ابن العاص وكان من كبار رجال الدهاء في المسلمين عن معاونة معاوية بما اراد وتسهيل العقبات التي كانت تحول دون ذلك فأخذ بيعة المصريين كما عاونه بأخذ بيعة غيرهم

وبعد مصاعب ومتاعب كثيرة اخذ معاوية البيعة لابنه يزيد من القرشيين الذين كانوا في حضرته او الذين كانوا محسوبين عليه وعبيد نعمته وما كانوا بالعدد اليسير في اطراف المملكة حتى في الحجاز وعزز هذه البيعة ما كان لدى معاوية من جاه وقوة والحق في جانب القوة في كل عصر ومصر

ومما لا خلاف فيه ان الدول تنشأ دائماً ابداً بقوة العصبية على ما قرره ابن خلدون في مقدمته بقوله « ان المغالبة والممانعة انما تكون بالعصبية لما فيها من النفرة والتذامر واستماتة كل واحد منهم دون صاحبه . ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقلّ ان يسلمه احد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشيء منها لا يقع الا بالعصبية وهو قول صحيح وقرر في فصل آخر « ان الدول العامة في اولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب للقرابة وان الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرئاسة في اهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في اعقاب

كثيرين ودول متعاقبة نسيت النفوس شأن الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على امرهم قتالهم على العقائد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في امرهم الى كبير عصابة »

فاذا تدبرنا هـذا القول الحكيم اتضح لنا ان عصبية الامويين ايضاً كانت سبباً كبيراً لاستخلاص الملك لمعاوية لان كل فرد من بني امية كان عاملاً لهذا الغرض وساعياً في سبيله سعياً حثيثاً بالرغم عن المعارضين والمقاومين باسم الدين بغير عصبية

هكذا ساد معاوية هـذا الرجل السياسي الدهقان بعصبيته وقوته وحسن سياسته على المسلمين وتمكن بحزمه وحنكته وبعد مواقع نظره من الاستيلاء على الخلافة واستخلاصها من الامام علي وغيره من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحويلها من شكلها الديني الذي وجدت عليه الى شكل سياسي محض وحصرها في عائلته وعمومته فعادت السلطة لبني امية في الاسلام كما كانت فيهم من قبل الاسلام

على ان الهاشميين ولا سيما سيدنا الحسين رضي الله عنه (لان سيدنا الحسن كان قد مات) لم يكونوا راضين عما تمّ في الشام من تحويل الخلافة الى ملك موروث كما ان من كان باقياً من الصحابة مع اولاد الصحابة مع الانصار وابنائهم رضوان الله عليهم جميعاً كان اكثرهم ان لم نقل كلهم ناقمين على معاوية ويعدون خلافته اغتصاباً وسلباً وان الخلافة لا يجوز ان تكون موروثة للاحفاد والاعقاب

وبالاجمال كان سكان الحجاز بجملتهم بالرغم عن الهدايا والمنح التي كانوا

ينالونها من نعم معاوية غير موالين لهذا الخليفة القادر القاهر وغير مسالمين له في نفوسهم وان تظاهروا بالخضوع طوعاً للقوة واشتدّ نفورهم منه على الاكثر لما قام الى بيعة ابنه يزيد واشهر عزمه على حصر الخلافة في اعقابه

ولما مات معاوية استلم ابنه يزيد زمام الخلافة وتربع على دستها فابى المدنيون مع كثيرين غيرهم مبايعته ولا سيما سيدنا الحسين الذي كان الناس يحرضونه على القيام بطلبها لنفسه ويمدونه بالمساعدة وبمقدمتهم اهل الكوفة واكثرهم الفرس وكان رجال يزيد اكفاء اذكياء اصحاب حزم ودهاء فرأوا ان سيدنا الحسين رضي الله عنه سيتعب يزيد في الخلافة وربما تغلب عليهم فتفسد عليهم احلامهم ومطامعهم ويعود المسلمون الى سابق القلاقل والفتن التي كانت على عهد ابيه كرم الله وجهه فاسرعوا لملاقاته وهو خارج باهله واولاده واولاد اخيه الحسن الى الكوفة يستنصرهم على يزيد حسب طلبهم الذي توالى عليه وحاصروه في كربلاء وقتلوه شرَّ قتلة مع اولاده واولاد اخيه واسروا النساء ولم يسلم من الذكور الا الولد الاوسط لسيدنا الحسين واسمه علي زين العابدين وكان هذا في السابعة من عمره وكان محموماً في تلك الواقعة بين النساء فسلمه الله من ايديهم

ومقتل سيدنا الحسين رضي الله عنه كان من افجع الفاجعات التي رواها التاريخ ومع ذلك ظلّ المسلمون موالين للامويين وراضين عنهم وما ذلك اذا علمت الا بدهاء معاوية الذي عرف كيف يستعبد القلوب ويستميل الاميال اليه كما عرف كيف يستخدم عصبيته وقوته لخدمة اغراضه وكذلك عرف كيف يربي ابنه ويؤهله لحفظ مركزه بالدهاء والكرم ورحابة الصدر والصبر على غصص الدهر على ان هذه الفاجعة اثرت تأثيرها الاعظم على

أهل الحجاز فقاموا على يزيد وعصوه وخلعوه بزعامة عبدالله بن الزبير فارسل عليهم جيشاً حاصر مكة المكرمة ورماها بالمنجنيق وكان ذلك سنة ٦٤ للهجرة وكاد جيش يزيد يتغلب عليهم لولم يمت ذلك الطاغية يزيد الذي كان يرتكب كل انواع المحرمات وكان قبل موته قد استخلف ابنه معاوية الثاني وكان شاباً صالحاً على انه كان مريضاً فلم تطل خلافته غير اربعين يوماً قضاها على فراش المرض ومات من غير ان يستخلف

غير ان الناس عند ما بلغهم موت يزيد بايعوا عبد الله بن الزبير واطاعه اهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ولم يبق خارج عنه الا الشام ومصر حيث بويع فيها الى معاوية بن يزيد فلما مات هذا ولم يستخلف اطاع أهلها الزبير وبايعوه وحسب الناس ان الخلافة قد عادت الى رونقها الديني الاول وحمدوا الله على ذلك

الا ان الامويين لم يكونوا ليسكتوا عن الخلافة وقد اعتبروها حقاً لهم فخرج مروان بن الحكم الاموي في الشام على ابن الزبير وجمع الناس من حوله وأخضع اهل الشام لحكمه ثم اخضع مصر اليه وأراد ان يتوجه لمحاربة ابن الزبير فعاجلته المنية فقام بعده ابنه عبدالملك بن مروان فجهز هذا الحجاج وارسله لمقاتلة ابن الزبير فسار اليه في مكه كرمها الله وحاصرها اشهراً ورماها بالمنجنيق وما زال كذلك الى ان افتتحها وقتل ابن الزبير صلباً ونكل بالقرشيين تنكيلاً وهكذا استعاد الخلافة وبايعه الناس طوعاً او كرهاً وانتقلت بعده الى ولديه الوليد وسليمان ثم الى عمر بن عبد العزيز الاموي الذي احيا بمدة خلافته آثار الخلفاء الراشدين حتى سماه الناس والتاريخ خامسهم وكان يقتفي باعماله آثار الامام عمر بن الخطاب كرم الله وجهه في كل حركة وسكنة

من حركاته وسكناته وهو الوحيد في الامويين الذي قدسه التاريخ ونزهه عن كل شائبة وجعل ذكره أعطر من الند والعنبر ولما مات خلفه يزيد بن عبدالملك بن مروان بعهد من أخيه سليمان بن عبدالملك

وهكذا جعل الامويون يتوارثون الخلافة ويورثونها الى اعقابهم الى عام ١٣٢ للهجرة حيث خرج عليهم بنو العباس بمساعدة الفرس وقهروهم واستخلصوا الخلافة من ايديهم فقامت الخلافة العباسية على انقاض الخلافة الاموية بعد ان ابقى الامويون من آثارهم ما خلد ذكرهم الى ابد الابيد على ما هو ظاهر في صفحات التاريخ

---

# الفصل التاسع والعشرون

## نظرة في الخلافة الاموية

من المدهشات الغريبة المحيرة للعقول والافهام والمدارك هو نمو المسلمين وتقدمهم في غزواتهم وفتوحاتهم مع كل ما اعترضهم من القلاقل والفتن على عهد الامام علي ومعاوية ويزيد وسيدنا الحسين . والاعجب من ذلك ارتفاع كلمة المسلمين في العالمين وانتصاراتهم الباهرة في كل حين على عهد الامويين بحيث ما من خليفة منهم تربع على دست الخلافة الاموية الا وقد تمّ على عهده الشيء الكثير من الفتوحات والمغازي حتى تقدم المسلمون في ذلك العهد الى البربر ومنها تقدموا الى اوروبا ففتحوا الاندلس وهددوا العالم بجملته على ما هو مشهور ومعروف

وكان الخلفاء الامويون الا عمر بن عبد العزيز منهمكين بملاذهم منغمسين

بالترف متسارعين الى شهواتهم لا يعملون في دنياهم الاما حفظه لهم التاريخ من السيئات في الوقت الذي نرى فيه المؤرخين يملأوون صحفهم بذكر اعمالهم الكبرى وفتوحاتهم الجيدة فاذا صدق هؤلاء المؤرخون في رواياتهم كان لنا ان نقول ان هؤلاء الخلفاء مع ما كانوا فيه من الترف والانصراف الى الملذات كانوا على جانب عظيم من الذكاء والدهاء ولذلك لم يحل اشتغالهم بنفوسهم عن النظر في شؤون الخلافة وترقيتها والعمل على زيادة نموها وعمرانها والتوسع في املاكها ورد غارات الاعداء عنها

ويظهر لنا ايضاً ان هؤلاء الخلفاء مع ما وجدوا فيه من الترف والانهماك بالشهوات ليسوا على ما يصفهم المؤرخون ويصورهم لنا المصورون ويروي رواياتهم الراوون فقد يكون فيهم بعض ما قال المؤرخون ولكن هذا لا ينفي عنهم صفات الحزم ولم يمنعهم عن سياسة الدولة والسهر على مصلحة الرعية والجهاد في سبيل توسيع الملك بالفتح والمغازي وصيانة املاكهم بالقوة والجبروت

خذ التاريخ وتصفحه ملياً تجد هولاء الخلفاء الامويين الذين وصفهم الواصفون بكل نقيصة تجدهم وقد خاضوا غمرات المنون ودوخوا شتيت الامم ثم استقص اخبار دولتهم تجد العدل عاماً شاملاً والحال على احسن منوال وهذا ما يحير الافكار ويدهش الخواطر

قالوا ان الفساد دبّ في دور الخلفاء من عهد يزيد بن معاوية اي من صدر خلافة بني امية وقد رأينا ما كان في ذلك العهد من القلاقل والفتن والاضطرابات وكيف كان الصحابة والانصار واولادهم رضوان الله عليهم غير راضين عن خلافة يزيد فلو لم يكن هذا الرجل بطلاً من ابطال المسلمين

وعلى جانب عظيم من الحزم والذكاء والدهاء لما ثبت على دست الخلافة ولا سيما بعد مجزرة سيدنا الحسين واولاده واولاد اخيه سيدنا الحسن رضوان الله عليهم. تلك الفاجعة السوداء التي لم نرَ في تواريخ الغابرين افظع منها في مثل ظروفها والدين على جدته وفي المسلمين من شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين على ركبتيه يقبلهما ويدعوهما بزهرة شباب الجنة ...

وبالاجمال نقول ان الخلفاء الامويين مهما استدرك عليهم المؤرخون ما كانوا فيه من الترف والاسترسال في الشهوات فقد كانوا ولا شك رجالاً اشداء على جانب عظيم من الروية والدراية والحزم وحسن العزيمة وبعد مواقع النظر في السياسة والكياسة او على الاقل كان لهم من الوزراء والاعوان من تغلبوا بهم على الزمان وافتتحوا بسيوفهم البلدان وحفظوا لهم الملك من الاعداء بحدّ الحسام

ولا بدّ لنا ان نلاحظ في عهد خلفاء بني امية جملة ملاحظات جوهرية سياسية ذات شأن لها ارتباط في ماضي المسلمين وحاضرهم وما شاء الله الى ان يتعارف الاخصام ويتصافى المسلمون ويسلموا من كل عدوان ويزيلوا ما بانفسهم من الاوهام

اولاً ان عهد الخلفاء الامويين كان عهداً تاسيسياً لدولة المسلمين فهو عهد سيف وفتح

ثانياً ان الامويين كانوا بين اعداء لهم من القرشيين ولا سيما آل البيت من العلويين والعباسيين وغيرهم من انسال اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبين اعدائهم الخارجيين من الاجانب الذين اخضعوهم لسلطانهم من الفرس والروم وغيرهم فكانوا ضمناً ناقمين عليهم كارهين لولايتهم ولا سيما الذين لم يسلموا منهم

ثالثاً ان الامويين هم الذين نظموا شؤون الخلافة على شكلها الدنيوي الذي حولوه اليه فكان لهم فضل التنظيم كما كان لهم فضل الفتح ايضاً على انهم لاقوا من الصعاب في هذا التنظيم ما احفظ عليهم قلوب الكثيرين من اعداء دولتهم ولا شك

رابعاً ان الامويين جعلوا دولتهم عربية محضاً فكانت الاعمال كلها بايدي الاعراب دون الامم الاخرى التي انضمت اليهم وخضعت لسلطانهم وهي الدولة الوحيدة العربية بكل معنى الكلمة فما استوزروا بها الا الاعراب وما اناطوا قيادة جيوشهم الا بابطال العربان فكان للطامعين بالاعمال من غير العرب ما اوجب لهم الكره والبغضاء كما هو معروف ومعلوم وبديهي

خامساً انهم هم اول من جعل لغة الدولة اللغة العربية فجعلوا يصدرون فيها اوامرهم ويسطرون فيها حساباتهم والجئوا الناس الى تلقيها بداعي المصلحة العامة الناتجة عن ارتباط الناس بحكامهم فكان لهم الفضل في نشر هذه اللغة بين الروم والفرس وكان تأثيرها على الشام اكثر من بلاد فارس لوجود الخلافة في الشام ولذلك تعرب اهل الشام وبقي الفرسيون على عجمتهم وتسبب عن هذا نفور القرشيين وولاء الشاميين لان اللغة من اكبر اسباب الائتلاف

واذا تدبرنا هذه الاسباب وغيرها مما لم نذكره لضيق المجال سهل علينا ان نحكم على مقدرة هؤلاء العربان اهل جزيرة العرب ولا سيما الامويين منهم لانهم تغلبوا على كل ما وقف في وجوههم من المصاعب والمتاعب التي يمكن ان يتأملها المتأمل عند ما يرجع في نظره الى ملاحظاتنا البديهية

## الفصل الثلاثون

### في حقد الفرس على المسلمين

من ارسل الى جغرافية البلاد العربية نظراً سديداً يرى في الشمال بلاد الشام ونهر الفرات وفي الغرب البحر الاحمر وقنال السويس وكانت كل هذه الاطراف في ايدي ملوك الروم داخلة في قسم المملكة الشرقية . ويرى في الجنوب المحيط الهندي وفي الشرق خليج عمان وبلاد فارس وكانت في ايدي الاكاسرة وتحت سيطرتهم وكان القياصرة على حدودهم وكانوا دائماً ابداً معهم في اصطدام

ولما ظهر الاسلام وايد الله كلمته وسار المسلمون للجهاد والفتح والتبشير بكلمة الله في الخافقين كانت هاتان المملكتان غرض جنودهم فحاربوهما وتغلبوا عليهما وجعلوهما اساس ملكهم العظيم وسلطانهم الفخيم ومجدهم الخالد وفخرهم الذي لا يزول في ظلال رايتهم المقدسة وهي راية « لا اله الا الله »

على ان بلاد الشام ومصر التي كانت خاضعة لملك القياصرة كانت آهلة بخليط من السكان من قبط وسريان وكلدان وارمن وغيرهم مع من كان في البلاد من النزلاء اليونانيين وهم اهل الملك والفرنجة المجاورين النازحين اليها من اوروبا

وكانت هذه الامم قد تنصرت ولكنها على مذاهب مختلفة وكلها تخالف مذهب ملوك الروم الذي كانوا يسمونه بالمذهب الملكي نسبة لهم وكان قياصرة القسطنطينيه شديدي الوطأة على كل من لا يخضع لمذهبهم فكانوا يضطهدونهم ويؤذونهم وينكلون بهم على ما سبقت الاشارة في غير هذا

المكان ولذلك عند ماظهر الاسلام وملك هـذه البـلاد ارتاح الاهلون من استبداد ملوك الروم وغطرستهم ومظالمهم ومغارمهم على ما هو واضح في التاريخ وحمدوا الله على ذلك ودخل من دخل منهم في الاسلام وبقي من بقي على دينه متمتعا بحسن الجوار وحسبوا دخول الاسلام عليهم وتملك المسلمين لبلادهم رحمة من الله تعالى لانهم ذاقوا في حكمهم لذة الراحة بعد ذلك العناء الكبير ولذة الحرية بعد تلك العبودية المتعبة وناهيك بعدل الاسلام وكرم اخلاق المسلمين بعد ظلم الروم وغطرستهم

والمظلوم اذا اتيح له الانتصاف والمتعوب اذا توفق الى الراحة مال الى مخلصه من ويلاته واخلص له وتفانى في خدمته وكان معه على اعدائه ولذلك مال اهل الشام الى الاسلام فدانوا به ومن بقي على دينه من اليهود والنصارى اهل الكتاب صدقوا في حب المسلمين وكانوا معهم يداً واحـدة في السراء والضراء وشاركوهم في مسراتهم واحزانهم واتخذوا لغتهم فتعربوا كما اتخذوا عوائدهم وتخلقوا باخلاقهم وهكذا ما مضى ردح من الزمان حتى اختلط السوريون والمصريون باهل جزيرة العرب اختلاطاً واندمجوا بهم اندماجاً بروابط الصداقة والمصاهرة والائتلاف

اما اهل فارس فكانوا جنساً واحداً الا العدد اليسير الذي كان مختلطاً بهم من السريان والنساطرة والارمن واليهود وكانوا هم اهل الدولة والسلطة والسيادة وكانوا على مذهب المجوسية اهل دين واحـد الا اولئك الذين كانوا على دين النصرانية واليهودية

فلما دالت دولتهم وزال ملكهم وخضعوا للمسلمين لم يروا من حلمهم ما رأى اهل الشام لان المسلمين كانوا مبشرين بدين الله وقد امروا ان

يعاملوا اهل الكتاب فقط بالتي هي احسن فما وسعهم الا ان شددوا على الكفار واكرهوهم على ترك الاشراك والالحاد واتباع التوحيد وعبادة الخالق عزّ وجلّ والتصديق برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم فدخلوا الاسلام مكرهين كما فقدوا ملكهم مكرهين ولذلك لم يخلصوا للمسلمين اخلاص اهل الشام ومصر الذين اسلموا مختارين ودخلوا في حكم الروم عن رغبة وشوق ولاقوا في دولتهم كل غبطة وهناء

وليس من الصعب والحال على ما نرى ان نقدر للفرسيين ما شئنا من النقمة على المسلمين مهما احسنوا اليهم لانهم تسلطوا على دولتهم فادالوها وتسطوا على بلادهم فدوخوها وضعضعوا مجوسيتهم تضعضعاً بقوة الحق الذي نشروه في نشرهم كتاب الله المنزل وآياته البينات

واول ما ظهر على الفرس من آثار بغضهم وحقدهم على المسلمين ارسالهم ابي لؤلؤة المجوسي لقتل الخليفة العادل عمر بن الخطاب فاغتاله بدمشق الشام على ما مرّ بنا

على انهم مالبثوا ان تمتعوا بنعمة الايمان وكشف الله عن بصائرهم فزال ما بنفوسهم من الحقد على هذا الدين الحنيف وقاموا بنصرته وغالوا في حبه وتفانوا في اذاعته ولهم بذلك آثار محمودة واعمال مشهودة وتعلقوا تعلقاً غريباً بحب اهل البيت الطاهر ولا سيما بالامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وسيدينا الحسن والحسين رضي الله عنهما ولم يبق في نفوسهم الا الحقد السياسي الذي نشأ عن مزاحمة معاوية للامام علي في خلافته فقاموا بنصرة الامام وما زالوا معه الى ان قتل فقاموا بنصرة ابنه الحسن ولما استقال هذا من الخلافة مراعاة لمصلحة المسلمين لم ينفك الفرسيون مطالبين بحقه الى

ان مات وبعد موته قاموا بنصرة الحسين ولـكن لما كان معاوية قابضاً بيده الحديدية على زمام الخلافة لم يجرأوا على الظهور فصبروا الى ان مات فقاموا يطلبون الخلافة لسيدنا الحسين ودعوه من المدينة المنورة الى الـكوفه فخرج اليهم باولاده واولاد اخيـه واهله وكان ما كان من الفاجعة التي مثلها رجال يزيد ولم يسطر التاريخ اشنع منها ولا افظع حينئذ تشيع الفرسيون لآل البيت واقاموا على عداء الامويين وما زالوا كذلك الى ان وفق الله العباسيين بمساعدة الفرسيين للقبض على زمام الخلافة الاسلامية

وتشيع الفرسيين الى الامام علي وآل البيت اوجب عليهم ان يفترقوا عن بقيـة المسلمين بمذهب خاص اطلق عليه اسم الشيعة . وهذا المذهب لا ينافي المذاهب الاخرى الاسلامية في اصول الاسلام بل يختلف معها في بعض فروعه . فاهل هذا المذهب الشيعيون بايعوا علياً كرم الله وجهه وقالوا انه الامام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتقدون ان الخلافة لا تخرج عنه وعن اولاده . ويعتقدون ان الامامة ليست من المصالح العامة المفوضة الى نظر الامة ولـكنها ركن الدين وقاعـدة الاسلام . وعلى النبي صلى الله عليه وسلم تعيين امام للمسلمين . وانه عين علياً بنصوص يؤولونها على مقتضى مذهبهم تأويلاً ينكره عليهم السنيون .

وقـد قسم اهل الشيعة تلك النصوص الى جلية وخفية . فمن النصوص الجلية قول النبي صلى الله عليه وسلم « من كنت مولاه فعلي مولاه » ولهـذا قال سيدنا عمر للامام علي « اصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » . ومنها قوله صلى الله عليـه وسلم « اقضاكم علي » فيقولون ان لا معنى للامامة الا القضاء باحكام الله . ومنها قوله صلى الله عليه وسلم « من يبايعني على روحه فهو وصي

وولي هذا الامر من بعدي فلم يبايعه الا علي »

واما النصوص الخفية عندهم فكثير منها ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث سيدنا ابا بكر لقراءة سورة براءة في الموسم حين انزلت ثم اوحي اليه « ليبلغه رجل من قومك » فبعث علياً ليكون القاري المبلغ . فيعتقدون ان هذا دليل على تقدم علي ولم يعرف انه صلى الله عليه وسلم قدم احداً عليه مع انه قدم بعضهم على ابي بكر وعمر ولهم اقوال اخرى لا محل لذكرها هنا

## الفصل الواحد والثلاثون

### في اهل الشيعة والسنة

ذكرنا في الفصل السابق ما حمل الفارسيين على التشيع للامام علي وآل البيت وقيامهم ضد بني امية ومن شايعهم حتى افضى الحال لاستخلاص الخلافة منهم وتسليمها للعباسيين

ولابدّ لنا في هذا المقام من استطراد المقال الى اهل الشيعة وهم اكبر فئة في الاسلام بعد السنيين لان السلام اذا ساد بين الفئتين كان فيه الخير العميم للمسلمين

ان كره الفرسيين للمسلمين كان في الاصل سياسياً لانهم تغلبوا عليهم واجبروهم على ترك مجوسيتهم ثم تحول هذا الكره السياسي من حالته الاصلية الى حالة ثانية وهي ان الفرسيين تمسكوا بحب اهل البيت وجعلوا الخلافة وقفاً عليهم وكفروا كل من قال غير هذا القول

وظاهر هذا الخلاف ديني لانهم ( اي الفرسيون او اهل الشيعة )

جعلوا الخلافة من قواعد الدين والكفر لمن بايع غير العلويين بها ثم تساهلوا هم انفسهم مع الايام حتى بايعوا العباسيين وهولاء وان كانوا من آل البيت الطاهر ولكنهم غير العلويين الذين ينتمي نسبهم الى سيدتنا فاطمه الزهراء رضي الله عنها والذين يرثون الخلافة عن ابيهم لو صحّ انها وقف عليهم

ومن تدبر هذا الامر بعين الروية لا يرى ما يمس الدين في امر الخلافة بل بالعكس ان العلماء افتوا بان الخليفة يجب ان يكن مسلما عالمًا بامور الدين صحيح الجسم والعقل وان حصر الخلافة في قريش لم يكن في الاصل الا لمنع الشغب والاضطراب اعتماداً على عصبيتهم ونفوذ كلمتهم في المسلمين ولما ضاعت عصبية القرشيين لم يعودوا اكفاء للخلافة وبناء على هذا الاجماع الذي يسلم به العقل وينطبق على مصلحة المسلمين من كل وجه نرى ان ليس من الصواب ان يتمسك الفرسيون في هـذه الايام بذلك المبدأ القديم المبهم بين قلوب الفرسيين واخوانهم المسلمين في اطراف الارض

ووالله ليدهشنا بل ويدهش كل ذي لب ان نرى اوروبا مجمعة ضدنا وتحاربنا حرباً صليبية وهي تعمل كل ما في استطاعتها حتى لا تبقي على مملكة من ممالك المسلمين باستقلالها وفي الوقت نفسه نرى المسلمين متنافرين متشاكسين باختلافات سياسية قد البسها الناس في تلك العصور الغابرة ثوباً دينياً وما هي من الدين في شيء

ان الاسلام بني على خمس شهادة لا آله الا الله وان محمداً رسول الله والقيام للصلاة وايتاء الزكاة والحج لبيت الله الحرام لمن استطاع الى ذلك سبيلاً

ومن البديهيات ان الفرسيين ككل المسلمين مؤمنين بالله ورسوله ومحافظين على اوقات الصلاة وايتاء الزكاة ويحجّ منهم من استطاع الى الحج

سبيلاً فلماذا لا يكونون اخواناً لنا في السراء والضراء ؟؟وانما المؤمنون اخوة كما قال رسول الله والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً

يا قوم لقد زال السبب الذي افضى الى الخلاف السياسي باسم الدين في التشيع للعلويين والعباسيين والامويين لان دولة هولاء الاقوام قد دالت فدعوا عنكم بالله هذا الشقاق وتعالوا معنا الى كلمة سواء لنقوم يداً واحدة في نصرة الاسلام والقرآن والله لا يهمل القوم المتناصرين المتضامنين

لا يمرّ بنا يوم عاشوراء من كل عام ونرى فيه المأتم الذي يحييه الايرانيون في مصر وغير مصر الا ونشعر بالاسف والحزن على هذا العمل الذي يجدد في الصدور الحزازات والاحقاد ولا يغني المسلمين فتيلا

نعم لا ننكر ان مذبحة سيدنا الحسين واولاده واولاد اخيه الحسن رضوان الله عليهم هي من الفظاعة بمكان بل هي افظع ما تتصوره الاذهان وماحدث في غابر الازمان ولكن لا يجب ان ينسى اخواننا الايرانيون ان هولاء الاماجد الذين فتكت بهم يد السياسة هم اعزاء على كل مسلم وذكرى نكبتهم تسيء كل موحد في الاجماع فلا سبيل للايرانيين دون سواهم ان يختصوا لانفسهم هذا المصاب ويحتكرونه احتكاراً ويجعلونه سبباً لابعاد قلوب المسلمين بعضها عن بعض مع انا نرى اغلبية آل البيت الطاهر من حسنيين وحسينيين من اهل السنة والمصاب مصابهم في الاصل كما لا يخفى

واذا كان الامويون قد مثلوا هذه الفاجعة على مرسح سياستهم حتى تمّ لهم الامر ونجوا من عدوّ عنيد لخلافتهم فان العباسيين قد اخذوا بالثار ونكل السفاح بهم تنكيلاً على ما هو مشهور ومعروف بالتاريخ وبعد اخذ الثار يجب ان تزول الاحقاد من الصدور وتتلاشى الاضغان من القلوب ولا

سيما بعد مرور هذا الزمن الطويل الذي لا يقلّ عن الالف والثلاثمائة عاماً تقريباً وفوق ذلك كله ان الذين نكاوا بسيدنا الحسين وهم الامويون قد دالت دولتهم منذ نيف والف ومئة وخمسين عاماً وان الخلافة اليوم بايدي بني عثمان وقد نالوها من العباسيين بالمبايعة بعد التغلب فما من فائدة على الاطلاق من التشيع اليوم لآل البيت بل الفائدة الحقيقية في نسيان كل شيء وارتباط الشعوب الاسلامية برابطة الدين الحقيقية للوقوف في وجوه الاوربيين الطامعين باملا كنا المخصبة ولا سلامة للبقية الباقية لنا من الاستقلال الا بالتكاتف والاتحاد

انّا لا نستطيع السكوت عن كل ما يفرق بين المسلمين ويفت في عضد اتحادهم ولا سيما في ايام المحنة هذه واذا قمنا ندعو المسلمين الى الارتباط والاتحاد يجب علينا قبل كل شيء ان ندعو اخواننا الايرانيين الذين يؤلفون اكبر دولة منظمة بعد الخلافة العثمانية العظمى فتعالوا ايها المسلمون ومدوا لنا ايديكم فنمد لكم ايدينا ونتصافح على السراء والضراء وننهض بهمة واحدة نهضة مفيدة تردّ عنا الاعداء والسلام على من دعي فاجاب

---

## الفصل الثاني والثلاثون

### في خلافة بني العباس

استلم ابو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب الملقب بالسفاح الخلافة الاسلامية من مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الاموي الملقب بمروان الحمار آخر الخلفاء الامويين . وكان ذلك في سنة ١٣٢ للهجرة وانتقلت بذلك الخلافة الاسلامية من ايدي الامويين

الى ايدي العباسيين ودخلت في عهد جديد انقلبت معه السياسة الاسلامية العامة من حالها العربي المحض الى حالة اسلامية عامة يستفيد منها كل من قال « لا اله الا الله »

ولم يكن هذا الفوز للعباسيين عفواً ولم يجيء مع الصدفة بل ان آل البيت الطاهر وفيهم العلويون والعباسيون كانوا يسعون وراء استخلاص الخلافة من الامويين من عهد معاوية وما زالوا كذلك الى ان سهل الله كل صعب على يد ابي مسلم الخرساني الفارسي داهية المسلمين في عصره وبواسطة الفرسيين انفسهم الذين كانوا من عهد الامام علي كرم الله وجهه متشيعين لاهل البيت يكفرون كل من خضع لخلافة غيرهم او بايع خليفة ليس منهم لما ذكرنا من الاسباب السياسية الحيوية التي حملتهم على ذلك

ولم يكن ابو مسلم وحده العامل على هذا الانقلاب الكبير بل ان ظروف الزمن ساعدته كثيراً فان خلفاء بني امية المتاخرين من بعد عمر بن عبد العزيز اي من يوم ان تولى الخلافة يزيد بن عبدالملك اخذت بالضعف والانحلال وفساد الاحوال فجعل الناس ينقلبون على الامويين وينقمون عليهم سراً وينفرون من حكمهم الذي فسد بفسادهم عند ما التهوا بانفسهم عن الخلافة وتغاضوا عن الرعية فعمت في البلاد المظالم والمغارم بعد ذلك العدل الشامل والرفاه الكامل . ثم كان لتحاسد وجوه الامويين على الخلافة شأن كبير في ضياع الملك من ايديهم وتغلب اعدائهم عليهم لان الخليفة كان ينصرف من مناوأة اخيه وابن عمه الى العمل على ملاذه ورفاهه . وعلى هذا كان مضطراً الى مسالمة عماله حتى لا ينتقضوا عليه وحتى يوافوه بالاموال التي كان يحتاج اليها لارضاء مطامع الطامعين بالخلافة من الامويين ومن

آل البيت وللانفاق منها على ملذاته وملاهيه

والعمال عند ما رأوا الخليفة وما صار اليه من الضعف والفساد طمعوا به واستخفوا بسيطرته وطغوا وبغوا في عباد الله استدراراً لما في جيوبهم من الاموال سداً لجشعهم من جهة وارضاء لخليفتهم من الجهة الاخرى فكانوا بذلك عوناً على الخليفة لاعاديه لانهم نفروا القوم من حكمه واوغروا صدور الرعايا على دولته فكثر المتشيعون لاهل البيت كما كثر عداد الناقمين على الامويين والكارهين لحكمهم وهكذا اشتدّ ساعد العباسيين وفازوا في الاخير بالخلافة وتربعوا على دستها

ومن البديهي ان الملوك اذا غفلوا عن رفاه وراحة رعاياهم ولم يتمسكوا بالعدل في احكامهم واستنزفوا اموال الرعايا لينفقوها على ملاذهم وملاهيهم فبشر دولتهم بالسقوط وملكهم بالخراب العاجل واذا اراد الله سبحانه ضياع مملكة افسد اخلاق حكامها وابعدهم عن العدل والرحمة الصفتين اللتين لا يدوم ملك بدونهما على ما يرى الحكيم في ثنيات التاريخ وتضاعيف سطوره وكم في التاريخ من دروس وعبر للمتطلع الحكيم . وقد قالت الحكماء « العدل اساس الملك » وقال الله عز وجل « واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » واذا كان المسلمون قد سادوا في صدر الاسلام فبفضيلة العدل فلا عجب اذا سقطت دولة بني امية عندما فقد العدل من ربوعها

وكان الواجب على اهل الشيعة ان ينسوا من هذا التاريخ الغلّ القديم ويمدوا ايديهم الى اهل السنة فيصافحوهم مصافحة الاخاء « وانما المؤمنون اخوة » وذلك لسببين جوهريين اولهما انهم انتقموا للامام علي وابنه الحسين رضي الله عنهما باستخلاص الخلافة من ايدي الامويين . وثانيهما لسقوط

دعواهم بمبايعتهم للعباسيين بالخلافة مع انهم كما سبقت الاشارة يتمسكون ببعض احاديث يحصرون فيها الخلافة بالامام علي وذريته من سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها

والناس مختلفون في احقية الخلافة للعباسيين او العلويين فمنهم من ذهب الى ان العباسيين هم ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرعيون لانهم انسال اخيه وقد مات بلا خلف ذكر فيحجبون العلويين وهم ابناء ابنته ومنهم من لا يرى ذلك وهم اهل الشيعة الذين يتمسكون بالاحاديث التي سبق لنا ايراد بعضها ويستخلصون منها حصر الخلافة بالامام علي كرم الله وجهه ويقولون ما دام النبي صلى الله عليه وسلم بايع علياً مع وجود اخيه العباس بالخلافة فقد اصبحت حقاً للامام ويكون اولاده واحفاده الوارثين الشرعيين لها دون سواهم

على ان كل هذا الخلاف قد زال وانقضى بمبايعة الشيعيين ( الا القليلين منهم ) للسفاح العباسي بالخلافة لان هذه المبايعة كانت مفسدة لتمسكهم القديم بوجوب مبايعة العلويين دون سواهم على ان الخلافة حق من حقوقهم وكان هولاء القليلون مع اكثر العلويين موضع اهتمام الخلفاء العباسيين فكانوا ينكلون تنكيلاً ببعضهم ويدرون الخيرات العميمة على البعض الآخر اسكاتاً لهم على ما هو صريح في التاريخ الى ان قامت الخلافة الفاطمية في البربر وامتدت الى مصر وسوريا وغيرهما من الاقاليم الاسلامية

وكان اول ما اهتم له العباسيون وبالاحرى الفارسيون هو نقل عاصمة الخلافة من دمشق الشام الى الكوفة وقد لاحظوا في ذلك الجوار بين بلاد فارس التي هي مصدر قوة الخلافة العباسية ومركز الخلافة كما لاحظوا ان

السوريين ما زالوا متشيعين لبني امية لانهم تعربوا فخالطوهم في الدين واللغة واصبحوا جنساً واحداً فلا يسهل عليهم تناسي دولتهم بازاء الدولة الجديدة التي قامت تحت سيطرة الفرسيين ومن البديهي ان هذا النقل كان فيه ملء الحكمة لان سوريا اصبحت بفضل الامويين عربية محضاً فلا يمكن ان يصبر اهلوها على الخضوع للفرسيين وهم مسودون بين ظهرانيهم ولا يدلك على ذلك اكثر من ان تقرأ التاريخ لترى ان بلاد الشام كانت اسرع البلاد الى الاستقلال بنفسها عندما دبّ الخور الى الخلافة العباسية وظهر الضعف على الخلفاء

على ان الفارسيين لما نالوا اربهم بنقل الخلافة للعباسيين وسيطروا على الخليفة لم يكفهم ذلك حتى حملوا السفاح على قتل كثيرين من وجوه بني امية غيلة بحيث لا يبقى منازع منهم على الخلافة . وجعلوا الامر لهم فكانوا الوزراء والقواد والكتاب واهل المشورة واجمع المؤرخون على ان دولة بني العباس كانت السبب في افتراق كلمة المسلمين فسقط اسم العرب من الديوان ودخل الاتراك فيه واستولت الديلم والاتراك على الاعمال والولايات وانقسمت الخلافة الاسلامية الى امارات ممتازة بعد ان كانت مملكة واحدة وصار بكل امارة امير يأخذ الناس بالعنف ويملكهم بالقهر ويسومهم الجور والعسف على ما هو صريح في صفحات التاريخ

ان السفاح كان اطوع للفارسيين من ظلهم وكان كثير الرعاية لابي مسلم الخرساني واخوانه الذين جعلهم موضع مشورته فاغتنموا هذه الفرصة وجعلوا يؤيدون مراكزهم ويعملون على جعل الامر لهم بالفعل وان كانت الخلافة للعباسيين بالاسم ولكن عندما مات السفاح وبويع بالخلافة اخوه

ابو جعفر عبد الله الملقب بالمنصور لم يطق غطرسة ابي مسلم وسيطرته بل وقد خاف سطوته وسلطانه فاول امر اتاه في خلافته ان قتله . وعمله هذا لم يكن نكراناً لجميل هذا الرجل ولكن سياسة معقولة حكيمة فانه لو لم يبطش بهذا الرجل لما امن على خلافته ولما اطمئن به ملكه بل كان الامر لابي مسلم والنهي في يده والله يعلم ماالذي سيكون لو غفل عنه الخليفة ومثل هذا حدث كثيراً للنوابغ الذين توفقوا لنقل الدول من يد الى يد

ولكن المنصور وان قتل ابي مسلم لم يستطع ان يحرر الخلافة من مداخلة الفرس ويعيد اليها صبغتها العربية لانه كان بجوارهم اولا ولم يكن باستطاعته التحول الى الشام لسببين اولهما ان السوريين كانوا موالين للامويين على رغم كل حادث جرى وقد اعتبروا تحول الخلافة الى العباسيين دخولاً في حكم الفرس وثانيهما انه لو فعل ذلك لما امن انتقاض الفرس عليه وقيامهم ضده كما كان حالهم مع الامويين ولم يشك انهم يتشيعون للعلويين ان هو تركهم وليس له في السوريين عضد كما كان الحال للامويين

وعلى هذا شاد مدينة بغداد وانتقل اليها وجعلها عاصمة الخلافة وامتزج مع الفارسيين امتزاج الماء بالراح وكانت دولته دولة فارسية اكثر منها عربية بل لم يكن لها من الصبغة العربية سوى ان الخليفة عربي وان لغة الدولة الرسمية هي اللغة العربية

على ان مجد الخلافة لم يظهر باجلى مجاليه الا على عهد الخلفاء العباسيين حيث اصبحت دولتهم اعظم وافخم وارقى كل ممالك العالم بالسلطة والقدرة والفلسفة والعلم والادب والمدنية والعمران والصناعة والتجارة والزراعة فاتجهت اليها أنظار الامم والشعوب وامتدّ سلطانها الى المشارق والمغارب وقد تمّ لها

ذلك كله بفضل الفارسيين الذين كانوا عاملين فيهـا ومشتغلين لترقيتها فكانوا خيرعون للخلفاء على هذا الارتقاء بغير مراء

وكان ابهى ازمان الخلافـة العباسية زمن هرون الرشيد ذلك الزمن الذهبي الذي يذكر به المسلمون مجدهم الباذخ وياسفون عند ذكره عليه فالله المسئول ان يعيد مثل ذلك العهد الجليل على العالم الاسلامي ميموناً مسعوداً مباركاً وليس ذلك على الله سبحانه بعزيز

---

## الفصل الثالث والثلاثون

### في نهضة الخلافة العباسية

من عجائب الاقدار ان الاسباب التي ضعضعت خلافة بني اميـة هي نفس الاسباب التي ضعضعت خلافة العباسيين مع بعض اسباب كانت بطبيعة الحال ويلاً على العباسيين

فقد ابتدأت عظمة العباسيين بالظهور من عهـد المنصور ثاني خلفائهم الذي عمر مدينة بغداد بتلك العظمة وذلك الجلال والفخامة على طراز ام المدائن عاصمة الاكاسرة مع تجنب ما لا يجيزه الاسلام من نحت الانصاب والتماثيل وما هي الا أعوام قليلة حتى أصبحت بغداد مدينة عظمى غاصة بالسكان على اختلاف الاجناس والاشكال لكثرة اقبال الساكنين عليها من العرب والفرس والترك والروم وغيرهم ولا عجب في ذلك فان المورد العزب كثير الزحام

وكان شروع المنصور ببناء مدينة بغداد سنة ١٤٠ ه اي بعد ولايتـه بثلاث اعوام وانتهى من بنائها في سنة ١٤٩ فيكون قد اتمّ بناءها في مـدة

تسعة أعوام وفي سنة ١٥١ هـ بنى الرصافة وجعلها متنزهاً له

وكان المنصور قادراً حازماً جريئاً مقداماً فانه بعد ان قتل ابا مسلم ووزراؤه من حوله كانوا يخوفونه من مغبة قتله اصبح الحاكم الحقيقي فاخذ يعمل لاخضاع الامارات والولايات الاسلامية التي ابت مبايعة ابيه تشيعاً للامويين فقضى في هذا السبيل نيف وعشرة أعوام كان له فيها النصر العظيم والفتح الكبير فلم يبق عليه من عاص سوى البلاد الاندلسية فعجز عنها ولم يحاول المجازفة باخضاعها لبعدها عن مركز خلافته ونعم ما فعل لانه لم يكن من السهل ان يسوق الجيوش من بغداد الى هاتيك البلاد النائية

وكانت الاندلس من فتح الامويين وخاضعة لهم فلما قتل السفاح وجوه بني امية سلم منهم رجل يقال له عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان وكانت سلامته ان تخلف عن قومه في دعوة السفاح المشئومة لهم فلما فتك بهم ذلك الفتك الذريع فقتلهم عن آخرهم توارى هذا عن العيان وهرب من الكوفة وما زال ينتقل من مدينة الى مدينة ويحتمي في بيوت الموالين للامويين حتى بلغ الاندلس سنة ١٣٨ هـ وعند ما دخلها نادى الاندلسيون به اميراً وبايعوه بالامارة ولكن لم يطلقوا عليه لقب امير المؤمنين واستقل بتلك البلاد واخذ يعنى بتوسيع ملكه من نواحي اوروبا ففتح كثيراً من العواصم وكان لحفيده عبد الرحمن الثاني المقام الاسنى فعظمت دولته وعلا شأنه وازهرت في عهده ربوع الفلسفة والاداب والعلم والصناعة ولقبه الناس بلقب امير المؤمنين ودعوه خليفة ولكن المسلمون في الشرق لم يعترفوا بخلافته

وقد عظم شأن الخليفة عبد الرحمن الاموي في الاندلس وخافته اوروبا

باسرها وهدد جنوب فرنسا بالفتح فقامت لمحاربته ولولا التعصب الديني في اوروبا يلجيء المالك الاوربية على الاتحاد ضدّ المسلمين وقتئذ ولولا انقسام المسلمين على انفسهم في ذلك الوقت لاتسعت المملكة الاندلسية كثيراً وملك المسلمون فرنسا وايتاليا وغيرهامن الدول ولكن قدر الله ان لا يتم هذا فافترقت كلمة المسلمين في الوقت الذي اتحدت فيه كلمة النصارى فاجلوا العرب عن اوروبا ولم يبقوا اثراً في اسبانيا لهم الا ما هو باق حتى الآن من آثار مساجدهم وقصورهم واسماء مدنهم وهو لم يزل شاهداً حتى الآن على عظمة المسلمين في ذلك العهد وسطوتهم التي كانت فوق كل حدّ واستعدادهم وما كان لهم من عظيم الجدّ

اما العباسيون فانهم بعد ان استراحوا من الحروب الداخلية وتوحدت كلمة المسلمين في الشرق على الخضوع لسلطانهم توجهت افكارهم نحو ترقية البلاد ادبياً ومادياً فاخذوا يعنون بترجمة كتب الفلسفة والهيأة والعلوم الاخرى فزهت ونمت كما نمت على عهدهم التجارة والصناعة والزراعة نمواً عظيماً عجيباً على ما هو معروف ومعلوم في كتب التاريخ

وكان اشهر خلفائهم هو هرون الرشيد المعروف وهو حفيد المنصور فقد كانت ايامه من أسعد ايام المسلمين وعهده اسمى عهد للاسلام فكانت ملوك الروم والفرنجة تهيبه وتخطب وده وتتزلف اليه وعلى عهده ظهر الخليفة الاندلسي الاموي عبدالرحمن الذي كان عهده ازهر عهد للمسلمين في الاندلس وكانت الدنيا في ذلك العهد السعيد في ايدي المسلمين

ثم اخذ يدبّ الفساد في الخلافة من بعد موت هرون الرشيد وجعلت المالك الاسلامية تتقهقر رويداً رويداً حتى اصبحت الخلافة العباسية والسفاه

ضعيفة خائرة القوى وقد دبّ اليها سوس الفساد فنخر عظامها واطمع الطامعين بها فدالت « وتلك الايام نداولها بين الناس » على ما سنبينه في الفصل الثاني

## الفصل الرابع والثلاثون

### في الاسباب التي ضعضعت مجد الخلافة العباسية

قلنا ان اسعد عهد الخلافة العباسية كان في ايام الخليفة هرون الرشيد في بغداد وخلافة عبد الرحمن الاموي الثاني في الاندلس

على ان الخليفة هرون الرشيد كان متوكئاً في دولته على البرامكة واصل هؤلاء البرامكة غلمان من الاتراك والديلم وغيرهم جيء بهم الى بغداد للخدمة مماليك وعبداناً فما لبثوا ان عظم شأنهم وعزت كلمتهم بما كان لهم من الذكاء الفطري فكان لهم باديء بدء الدالة والوجاهة في دور الخلفاء والوزراء والقوّاد ثم اصبحوا اصحاب الحول والطول على عهد الخليفة هارون الرشيد فكانوا يبرمون مايشاؤون ويحلون مايشاؤون واصبحوا اصحاب الثروة واليسار يجبون الضياع ويوزعونها ارزاقاً وعطايا وما كان ينقصهم من السلطة والعظمة الا الالقاب والاسماء وما زالوا كذلك حتى صاروا يسيرون بالخليفة الى مايشتهون ويصدونه عما يشتهون وما نالوا هذه المكانة العالية والمنزلة الرفيعة اعتباطاً بل عن جدارة واستحقاق ولياقة لانهم كانوا حماة الخلافة وسياج الدولة ودهاة السياسة وقادة الجنود عند الملمات

وعند ما وصل البرامكة الى ما لا زيادة بعده لمستزيد الا ان ينزل هارون الرشيد عن اريكته ويجلس زعيمهم عليها خاف على المملكة منهم وشعر بالخطر

الذي يتهدد اريكته لو هو غفل عنهم فلم ير لسلامة دولته الا ان يعمل السيف في رقابهم ففاجأهم بمجزرة عامـة لم تبق ولم تذر فمضوا كما مضى امس الدابر واصبحوا بعد ان كانوا زينة القصور زينة المقابر

ولقد اجمع المؤرخون على ان هارون الرشيد قد عمل مافيـه سداد الرأي واصالته لو لم يخطىء بتغافله عن اعداد الرجال الاكفاء ليشغلوا مناصبهم في الدولة وكانت اهم المناصب فاحدث مقتلهم فراغاً لم يستطع املاءه بمن كان حوله من المـداهنين والمتملقين الذين لم يكن لهم من همّ سوى الوشاية على هؤلاء الدهاة والابطال وكان ذلك بدء عهد الخلافة العباسية بالسقوط من قمة مجدها وسرعان ما شعرت بالضعف ولا سيما بعد موت هارون الرشيد فكان الدواء الذي استعمله هذا الخليفة لسلامة دولته هو الداء بعينه وصحّ فيه قول القائل

اذا استشفيت من داء بداء فاول ما اعلك ماشفاكا

وكان الناس في ذلك العهد احزاباً وقد نشط انقسامهم مقتل البرامكة فاستضعفوا بعدهم الخليفة وتجـددت فيهم الامال في الحلول محلهم في تلك الوظائف السامية والاعمال الهامة ولا سيما بعد موت هارون الرشيد فالتفّ اشراف العرب ونبلاؤهم حـول الامين وهو ابن زبيـده بنت عم الرشيد وقاموا بنصرته وكان هذا فطير الرأي كثير الطيش مشهوراً بالحمق والغباوة فوافقهم على مناصبة اخيـه المأمون الذي كان اوفر منـه حزماً واصحّ منه عزيمة وانتصر باخواله الفرس لان امه كانت فارسية ام ولد تسمى مراجل . وقام النزاع بين الاخوين فنجم عن ذلك من المفاسد ما ازاد في اضعاف الخلافة واطمع بها اعداءها من الشعوب الخاضعة لها فكثر انتقاض الولايات

عليها واشتدت نفرة الامارات الاسلامية منها فقاطعتها وامتنعت عن الخضوع لشوكتها

وهكذا جعلت الخلافة تضعف والعمال ينتقضون على الخلافة رويداً رويداً الى ان انفصم عقد الوحدة الاسلامية واصبحت البلاد امارات متفرقة بعضها منتقضة على الخلافة وبعضها خاضعة لها خضوعاً اسمياً حتى بغداد نفسها وهي مركز الخلافة فقد اتصل باهلها الفساد وقامت بينهم الخصومات والمنازعات والقلاقل والفتن

والذي زاد في ضعف الخلافة اشتغل الناس بالاختلافات الدينية التي فصمت وحدة المسلمين وشتتت شمل اجتماعهم ودخول الخلفاء في هذه الاختلافات واستعمالهم سلطانهم المدني على تعميمها مما ازاد الشرّ اتساعاً والخطب تفاقماً من ذلك قيام المعتصم بنصرة القائلين بخلق القرآن الشريف وارساله الاوامر بتعميم هذا المذهب مما افضى الى نقمة رجال الدين عليه وقيامهم لمحاربته

واول من استسلم صراحة الى الترك كان الواثق بالله حفيد هارون الرشيد الذي تولى الخلافة سنة ٢٢٧ للهجرة فانه استخلف على السلطنة اشناس التركي والبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهراً وهو اول من فعل ذلك وما كفاه هذا حتى امتحن الائمة والمؤذنين بخلق القرآن اتباعاً لابيه واضطهد كل من لا يقول بهذه البدعة الا انه رجع في آخر ايامه الى الايمان بعد ان نكل بالعلماء والفقهاء تنكيلاً

هكذا دبّ الفساد الى الدولة العباسية وتضعضع شأنها وتحكم الغرباء بامرها حتى اصبحت منصباً دينياً محضاً لا شأن للقائم بها الا شأن الشيوخ اليوم في الممالك الاسلامية وكان السلاطين الاتراك يتحكمون بهم ويحجرون

عليهم ويستبدون بامر المسلمين دونهم والمملكة الاسلامية منقسمة الى امارات تناوي بعضها بعضاً وتحارب بعضها بعضاً

وقامت الخلافة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٨ للهجرة قام بها المهدي العلوي واسمه عبد الله فان هذا الرجل دخل المغرب وادعى انه علوي وادعى بالمهدويه فبايعه الناس هناك وكان ذلك زيادة في تقسيم كلمة المسلمين حيث اعتبره مسلمو الشرق مجوسياً وزنديقاً وقامت على اثر ذلك الحروب والخصومات التي اضعفت كلمة المسلمين ومزقت شملهم كل ممزق وبعد ان مات عبد الله المهدي هذا قام بالامر بعده ابنه محمد المكنى بابي القاسم والملقب بالقائم بامر الله فازاد في اتساع مملكته والدعوة الى خلافته وجعلوا يتوارثون الخلافة خلفاً عن سلف ويتوسعون بالفتوحات حتى امتدّ سلطانهم الى مصر والشام وكان ظهور هذه الخلافة ضربة جديدة على الخلافة العباسية ازادت في ضعفها

وما افضت الخلافة العباسية للمتقي لله ابي اسحق ابرهيم سنة ٣١٩ للهجرة حتى كانت قد اصبحت في هوّة السقوط بحيث لم يكن هذا الخليفة في الحقيقة الا آلة في يد بجكم التركي وزاد الشرّ عند ما قتل بجكم هذا وتولى الامر مكانه كورتكين الديلمي وذلك لظهور ابن رائق التركي الذي جاء بغداد وحارب كورتكين وظهر عليه وتولى الامر دونه وهكذا جعل الامراء الترك يتقاتلون على السلطة والفائز منهم يوليه الخليفة الامر . والناس يئنون من المظالم والمغارم التي كانوا يعانونها من حكامهم وكانت الولايات تنفصل عن الخلافة بعضها تلو البعض . وكان السلاطين الاتراك هم اصحاب الحول والطول وما زالوا يتمادون في غيهم حتى أصبحوا يلعبون بالخلفاء على مايشاؤون

كذلك كان الحال في ايام المستكفي والمطيع والطائع والقادر ومن تبعهم من الخلفاء بينما كانت الخلافة الفاطمية تقوى وتنمو وتتقدم من المغرب للغزو والفتوح في بلاد المسلمين حتى اتصلوا ببغداد وقامت بينهم وبين الامراء الاتراك القائمين من حول الخلافة الحروب والفتن التي سفكت فيها دماء المسلمين انهراً فقدر لهذه الحالة ما تستطيع من الشؤم والويل ولا تعجب بعد ذلك لسقوط مجد المسلمين « لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

---

# الفصل الخامس والثلاثون

## الحروب الصليبية

وكان الافرنج في ذلك العهد في منتهى الغباوة والجهل لا تقاس همجيتهم بما نراه اليوم في البلاد الشرقية بل كانوا دون ذلك بمراحل كانوا همج متوحشين وكانوا كثيري التعصب منقادين الى رؤسائهم الدينيين يسوقونهم الى حيث يشاؤون فيلبونهم صاغرين وكانوا منفرقين الكلمة متضعضعي الافكار لا يعبأون بغير المجادلات الدينية والمنازعات المذهبية

فلما عظمت شوكة المسلمين في الاندلس وتقدموا للفتح والغزو في البلاد الاوربية دعا البابا وهو رئيس النصرانية الاكبر اهل اوروبا الاجتماع على محاربة المسلمين باسم الدين فاجتمعت كلمتهم وحاربوا مسلمي الاندلس ولم يرَ هؤلاء مدداً من مسلمي المشرق لما ذكرنا من منازعتهم السياسية وانفصام وحدتهم الملية فاصابهم ما يصيب كل امة انفصمت عرى وفاقها وارتدوا عن الاندلس مقهورين بعد ان قتل منهم العدد الكبير ولا نريد ان نشرح

باسهاب ما اصاب المسلمين من الاهوال في هذه الحروب الهمجية التى اثارتها ثائرة التعصب الديني الاوربي فانطفأت انوار هاتيك المدنية الزاهرة وتبدل عمران الاندلس بذلك الخراب الهائل الذي يذكره الاوربيون بدموع الحزن والانفجاع فكيف بالمسلمين ... ولكن اذا كانت مصائب قوم عند قوم فوائد فقد كان انتصار الاوربيين على المسلمين في الاندلس سبباً لنهضتهم وارتقائهم ومدنيتهم التي يتبجحون بها على المسلمين في هذا العصر ويدعون انها قد تسببت عن دينهم وان الاسلام عار عنها دعوى ما انزل الله بها من سلطان ولا يرضى بها عاقل من بني الانسان

وما كفى الاوربيين هذا الفوز الباهر الذي نالوه على مسلمي الاندلس فاجلوهم عن اوروبا حتى تولد في نفوسهم استخلاص بيت المقدس من ايدي المسلمين اولاً ومحو هـذا الدين من عالم الوجود ثانياً فحاولوا ان يطفئوا نور الله بايديهم وابى الله الا ان يتمّ نوره فقام الباباوات ومن حولهم من الرهبان والقسيسين يدعون النصارى لمحاربة المسلمين باسم الدين فتطوع المتعصبون وما كان اكثرهم للجهاد في سبيل النصرانية واتخذوا الصليب علامة لهم فكانوا يضعونه باللون الاحمر على صدورهم ولذلك دعوا بالصليبيين وهاجموا الشرق بخيلهم ورجلهم سبع مرات لم يلاقوا بها الا الاندحار على رغم ما كان عليه المسلمون من تفرق الكلمة فكان ذلك معجزة من الله عزّ وجلّ لاهل هذا الدين الحنيف . واشهر بطل ظهر في الاسلام في الحروب الصليبية هو السلطان صلاح الدين الايوبي الشهير ذلك البطل المغوار الذي حياه في الامس الامبراطور غليوم وكلل ضريحه النوراني بدمشق باكليل من الغار اعترافاً بفضله بعد كل هذه الاعوام الطوال

وبعد ان لاقى الصليبيون ما لاقوا من النكال ولم ينالوا منالا من المسلمين ارتدوا على اعقابهم خاسرين والتزموا بلادهم متخذلين على انهم دوننا بعد هذه الحروب انعكفوا على العمل فيما يرقيهم ويفيدهم بالاستقبال فافلحوا اما نحن فلبثنا على ما نحن فيه من الجهل فكان نصيبنا هذا الضعف الظاهر في هذا العهد في جميع ممالك المسلمين

نذكر هذا بالاسى والحزن والالتياع ونأسف اننا لم نستفد من هذه المداوات كما استفاد الاوربيون فصحّ فيهم دوننا قول الشاعر

والعداوات كالمودات في النا    س يستفيد الحكيم من عقباها

نعم نأسف اشد الاسف على مجد زال ونحن رجاله وعلى سلطة ضاعت وقد جنيناها بدمائنا ونحزن وحق لنا ان نحزن فقد كنا اهل المدنية والحضارة والعلم والعمل وكانت عندنا الصنائع والفنون فتحول كل ذلك لاوربا وتحولنا بعدها الى هذا الجمود تحولاً يكاد يفقدنا كلّ امل في الاستقبال لولا التعلل بقول من قال

لا ييأسنّ مريض من سلامته    ما دام في جسمه شيء من الرمق

## الفصل السادس والثلاثون

### الخلفاء العباسيون في مصر

ان جعل الخلافة في مقامها الديني العقائدي كان من جملة الاسباب التي ادت الى ضعفها حيث كان يتسلح اعداؤها لمحاربتها باسم الدين وكم للدين من انصار لا يهمهم من امره الا الوصول الى ابعد الاغراض والغايات الخصوصية

التي كثيراً ما اضرت الدين ومصلحة المؤمنين

فالفرسيون ظلوا يماكسون بني امية باسم العلويين ويكفرون كل من بايع غيرهم حتى دالت دولتهم وقام العباسيون وهم غير العلويين فانقسم الفرسيون وغيرهم من المسلمين الى من ايد العباسيين ومن تشيع للعلويين وكان منهم كثيرون من الموالين للامويين بعد سقوطهم وترحب الاندلسيون ببني امية وامروا عبدالرحمن عليهم وقطعوا كل صلة لهم مع الخلافة العباسية فضعف شأنهم وعند الشدة لم يقووا على الوقوف في وجه الاوروبيين فنكلوا بهم ذلك التنكيل المحزن الذي ابقى اسوأ ذكر في صدور المسلمين على ما اشرنا ولم ينحصر الضرر بمسلمي الاندلس وحدهم بل تعداهم الضرر والضعف الى الخلافة العباسية لفقدان مبدأ التضامن بين المسلمين وهكذا لعبت السياسة الخرقاء دورها بالمسلمين باسم الدين فاضرت بهم جميعاً ضرراً اخف ما فيه ضياع المجد والجاه والثروة والعلم

وما زال العلويون يحلمون بالخلافة حتى قامت منهم الخلافة الفاطمية ومنهم من يقول ان الخلفاء الفاطميين ليسوا من ابناء فاطمة الزهراء من انسال الحسن رضي الله عنهما كما يدعون بل هم من اليهود المسلمين ونحن لا نتبحر في هذا البحث بل نقول ان الخلافة الفاطمية قامت باسم العلويين فازادت هذه الدعوى الشقاق بين المسلمين وجعلوا يكفرون بعضهم بعضاً في الوقت الذي كان فيه المسلمون في الحاجة القصوى الى التضامن والاتحاد وتوحيد الكلمة فكان ذلك ثالثة الاثافي ومنتهى المحنة فلا حول ولا قوة الا بالله

ثم لم تلبث الخلافة الفاطمية ان تلاشت بعد ان استفحل امرها وذلك

بانتقاض امراء مصر وسوريا عليها فاعيدت الخطبة باسم العباسيين الى هذين الصقعين وكان ذلك على عهد الخليفة الحسن ابي محمد الملقب بالمستضيء بامر الله ابن المستنجد بالله الذي تربع على دست الخلافة في يوم موت ابيه في ٨ ربيع الآخر سنة ٥٦٦ للهجرة فاستبشر بذلك المسلمون خيراً وظنوا ان الخلافة قد عادت الى سابق مجدها ورونقها وما انتبهوا الى العناصر الاجنبية التي كانت ذات الحول والطول في مصر وسوريا كالترك والجركس والمغول والتتر وغيرهم من اصحاب السلطة والسيادة وان السلطان صلاح الدين الايوبي لم يخضع بالظاهر الى الخليفة العباسي الا ليستميل الى سلطانه قلوب المسلمين باسم الدين وهو في احرج مواقفه امام الصليبيين فكان ذلك من هذا السلطان العظيم سياسة حسنة لانه تمكن من ضرب الصليبيين تلك الضربة القاضية ولكنه لم يتوفق فيما بعد لتوحيد كلمة المسلمين

ثم تولى الناصر لدين الله احمد بن المستضيء الخلافة بعد ابيه وكان حسن السياسة وافر الحزم والدهاء فخضعت له اكثر الممالك الاسلامية وكاد يوحد كلمة المسلمين تماماً ويعيد مجد الخلافة العباسية الى سابق حالها ولم يل الخلافة احد اطول منه مدة حيث دامت خلافته مدة سبعة واربعين عاماً كانت كلها خير وبركات على المسلمين الا انه عند ما مات رجعت الخلافة الى سابق عهدها بالتقهقر وهذه مصيبة حكومة الفرد الواحد فلو كان الناصر مشاركا في حكمه من حوله من الوزراء والاعوان مشاركة فعلية كما كان الحال في صدر الاسلام لما حاق بالخلافة ما حاق بها من الاضمحلال بعد موته ولكن قدر فكان

وفي عهد هذا الخليفة ظهر الاترك في مملكة خوارزم شاه ما وراء النهر وتألبوا عليها عند ما كان خوارزم شاه عازماً على محاربة الخليفة الناصر

فارتدّ عن بغداد بعد ان كاد يصلها ويدخلها عنوة وكان هذا اول عهد المسلمين بالاتراك اجداد الخلفاء العثمانيين

ثم مات الناصر فخلفه ابنه الظاهر بامر الله ثم مات هذا فخلفه ابنه المستنصر بالله وكان كلاهما عادلا فاضلا تقياً ورعاً كثير البرّ فاستضعفهما ملوك المسلمين وقوادهم وعادوا الى شرّ الانقسام وبعد موت المستنصر خلفه المستعصم بالله ابو احمد ابنه فكان كابيه وجده بالتقى والصلاح وحب العدل ولكنه كان مع ذلك ضعيف الارادة كثير اللين فاستسلم الى وزيره مؤيد الدين العلقمي فطغى هذا وبغى واهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف اراد وباطن التتر وناصحهم واطمعهم بالمجيء الى العراق فاستفحل امر التتر واخذوا يعوثون في بلاد المسلمين شرقاً وغرباً وفي سنة ٥٦ للهجرة وصل التتر الى بغداد بقيادة هلاكو الطاغية فبطش بجيوش الخليفة واهل بغداد وقتل الخليفة ايضاً واستبدّ بالامر واقام على العراق نوابه وتقدموا نحو دمشق فاستنصر الدمشقيون بالمصريين على عهد اميرها المنصور علي بن المعز وكان صبياً واتابكه الامير سيف الدين قطوز فاغتنم هذا الفرصة وخلع الصبي وقبض على زمام الامارة وخرج على التتر ناصراً للسوريين فغلبهم وهزمهم شرّ هزيمة ثم عاد الى مصر وبينما كان في الطريق قتله بيبرس الذي كان والياً على دمشق واستولى على الامارتين المصرية والسورية ودعي بالملك القاهر ثم ابطل هذا اللقب تشاؤماً ودعي بالملك الظاهر وهو زعيم حكم المماليك بمصر

وكان في بغداد على عهد المستعصم رجل من العباسيين يدعى احمد ابو القاسم بن الظاهر بامر الله وكان الخليفة قد خافه فحبسه فلما دخل التتر بغداد واختلّ امر الخلافة تمكن من الافلات وهرب الى عرب العراق واحتمى بهم

فلما استقر الامر للملك الظاهر قدم مصر فلاقاه الظاهر بالتجلة والحفاوة والاكرام وبايعه بالخلافة وكان ذلك في شهر رجب سنة ٦٥٩ اي بعد ان ظل المسلمون ثلاث سنوات تقريباً بلا خليفة فكان اول خليفة عباسي اقام في القطر المصري وقد فعل الملك الظاهر بيبرس هذا لغرض سياسي كبير وهو التوصل بواسطة الخليفة العباسي الذي كان في اسره تقريباً وتحت ظل نفوذه الى الاستيلاء على كل الممالك الاسلامية باسم الدين والطاعة الواجبة على المسلمين لامير المؤمنين فكان عمل بيبرس هذا دهاء سياسيا ولا يبعد انه خاف ايضاً ان يبايع التتر واحداً من العباسيين او العلويين في بغداد ويعززون به كلمتهم ويدعون به المسلمين الى طاعتهم

ولما مات هذا الخليفة خلفه ابنه الحاكم بامر الله ثم خلفه ابنه المستكفي بالله ثم خلفه الواثق بالله بن ابراهيم وهو ابن اخي المستكفي ثم خلفه ابو العباس الحاكم بامر الله بن المستكفي ثم خلفه اخوه المعتضد بالله ابو بكر ثم خلفه ابنه المتوكل على الله فخلع وخلفه الواثق بالله عمر بن ابرهيم بن المستمسك ولي العهد بن الحاكم ثم خلع فخلفه اخوه المستعصم بالله زكريا ثم خلع فاعيد المتوكل ثم خلفه ابنه المستعين بالله العباس ثم خلفه المعتضد بالله داود بن المتوكل ثم خلفه اخوه المستكفي بالله سليمان ثم خلفه اخوه القائم بامر الله حمزه ثم خلفه اخوه المستنجد بالله يوسف ثم خلفه المتوكل على الله عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله ثم توفي هذا يوم الجمعة في ٢ صفر سنة ٩٠٣ للهجرة فخلفه الخليفة ابو صابر يعقوب الملقب بالمستمسك بالله ثم خلفه محمد المتوكل على الله فكان آخر الخلفاء العباسيين المصريين وعلى عهده دخل ساكن الجنان السلطان سليم خان مصر وبايعه المتوكل على الله بالخلافة كما سيجيء

وظاهر من مجمل ما تقدم ان الخلفاء العباسيين الذين أقاموا في مصر لم يكن لهم حول ولا طول بل كانوا تحت سيطرة هؤلاء المماليك كشيوخ دينيين وكان المماليك يستعينون بهم على استمالة قلوب المسلمين اليهم في حروبهم وغزواتهم وهكذا دالت خلافة بني العباس بعد ان تلاشت على عهدها خلافة الامويين في الاندلس والفاطميين في البربر ومصر وزال ملك العرب من الوجود في عظمته المعدودة المشهورة وحلت محلهم الامة التركية الكريمة التي رفعت شأن المسلمين وعززت شوكتهم واعادت سابق مجدهم وفخارهم بشكل اعم واتم وابى الله الا ان يتم نوره ولو كره المنافقون

## الفصل السابع والثلاثون

### في الخلافة العثمانية ادامها الله

من امعن النظر في تاريخ الاسلام يرَ ان الله سبحانه وتعالى قد ايد هذه الامة ونصر هذا الدين وحمى هذه الشريعة السمحاء على رغم ما منينا به نحن معاشر المسلمين من الاختلافات المذهبية والانقسامات السياسية مما لو كان بقوم آخرين لاضمحلوا ولعبت بهم ايدي سبا وذلك فضل الله عزّ وجلّ ويمن منه تعالى على المسلمين

فلما ضعف شأن المسلمين واستفحل امر الخارجين على الخلافة واصبحت لعبة في ايدي اصحاب السلطة والنفوذ في مصر ابى الله الا ان يتم فضله بظهور الدولة العلية العثمانية ذلك الظهور المدهش وانتهاء امر الخلافة اليها فانتشلتها من ذلك الاضطراب وتوحدت بها كلمة المسلمين بعد ذلك التفريق المخيف

وعادت السياسة الى كلمة « لا اله الا الله » في الشرق والغرب فكانت كلمة الله هي العليا وكان الله وليّ المتقين

ان ظهور التتر كان الضربة القاضية على المملكة الاسلامية وازداد الشرّ بهجوم الصليبيين على المسلمين لاستخلاص بيت المقدس من ايديهم بعامل التعصب الديني ومع ذلك كله ثبت المسلمون امام هذه الزوابع الهائلة بفضل قرآنهم وتدينهم وما زالوا محاربين ومدافعين حتى ردوا التتر والصليبيين على اعقابهم وبقي الشرق بايدي المسلمين.فالحمد لله والف الحمد لله

لما ظهر التتر ومنيت بهم الممالك الاسلامية وعاثوا في البلاد فساداً فلم يبقوا ولم يذروا كان في آسيا الوسطى قبيلة من أكرم القبائل التركية نزعة وأشهرها شجاعة واقداماً وكانت هذه القبيلة بزعامة سليمان شاه وكان فيها نحو الفي فارس من الشجعان الذين لا يهابون ريب المنون فهاجر سليمان شاه بقبيلته الى الاناضول وكان ذلك في القرن السابع للهجرة ولما قرب التتر من المثوى الذي اختاره لقبيلته بقرب مدينة اخلاط تركها سليمان وسار الى آذربجان ثم أراد ان يعود الى وطنه فلما كان يقطع نهر الفرات بقبيلته بقرب مدينة اورفا وقع في النهر ومات غريقاً وكان له اربعة اولاد وهم سنقورتكين وكون طوغدي وارطغرل ودندان اما الاولان فسارا الى وطنهما وعاد ارطغرل ودندان بالقبيلة الى مدينة ارضروم من أعمال الاناضول وخيموا في ضواحيها واصبح ارطغرل زعيماً لها واتفق ان ارطغرل عثر بفرقة من جيش التتر كانت سائرة لمحاربة علاء الدين السلجوقي فحاربها ونكل بها ولما سمع السلطان علاء الدين ذلك ارسل الى ارطغرل يشكره وسمح له ولقبيلته بوادي طومانيج واسكي شهر ليقيموا فيهما وفي سنة ٨٠ هجرية توفي ارطغرل فخلفه ابنه عثمان

على زعامة الامارة وكان فارساً مغواراً وجرت له عدة مواقع على عهد ابيه مع القبائل المجاورة فكان هو الفائز واستولى على جملة قلاع وحصون ولذلك لقبه القوم بلقب « الغازي » وكان يضمّ فتوحاته الى المماكة السلجوقية ثم لما خلف ابيه على امارة القبيلة ازداد شوكة وفتوحاً وعظم اسمه في البلاد وخطبوا له في الجوامع

وسنة ٦٩٩ للهجرة مات السلطان علاء الدين السلجوقي بلا عقب فبايع الوزراء والعظماء عثمان الغازي بالسلطنة وجعل مقرّ سلطنته مدينة يكي شهر وكان هو مؤسس الخلافة العثمانية خلدها الله وقد قامت على انقاض السلطنة السلجوقية

ثم مات السلطان عثمان سنة ٧٢٦ للهجرة فخلفه على الملك ابنه اورخان خان وبقي على تخت الملك خمسة وثلاثين عاماً كان له فيها من جلائل الفتوحات الشيء الكثير وعظمت شوكته في البلاد وهو الذي فتح مدينة بروصه وجعلها عاصمة لملكه وفتح كثيراً من مدن الروم وقلاعهم ثم خلفه السلطان مراد الاول سنة ٧٦١ للهجرة وكان حكمه مدة واحد وثلاثين سنة قضاها ايضاً بالفتوح والمغازي في جهات اوروبا ثم خلفه السلطان بيازيد سنة ٧٩١ للهجرة وتوسع هذا السلطان بالفتح ايضاً واتسع ملكه اتساعاً كبيراً في نواحي اوروبا واسيا ثمّ خلفه على السلطنة سنة ٨١٧ للهجرة السلطان محمد چلبي الاول وكانت حروبه في جهات الفلاخ هائلة وكان النصر حليفه في كل مواقعه ثم خلفه السلطان مراد الثاني سنة ٨٢٤ للهجرة ونقل هذا عاصمة ملكه الى مدينة ادرنه وحاول ان يفتح القسطنطينية فلم يتوفق فبقي ذلك الى ابنه السلطان محمد الفاتح الذي تربع على اريكة السلطنة السنية سنة ٨٥٥ وعلى عهد هذا السلطان العظيم تلألأ مجد السلطنة العثمانية بفتح القسطنطينية وملك السلاطين

العثمانيون البحرين البحر الاسود والبحر المتوسط والبرين وهما أوروبا واسيا ثم خلفه السلطان بيازيد الثاني سنة ٨٨٤ للهجرة وكان له مواقع هائلة مع أخيه جم الذي التجأ أخيراً الى مصر فاتجهت انظار السلطان حينئذ الى فتح هذا القطر السعيد ثم عدل عن ذلك وفي سنة ٩١٨ للهجرة مات السلطان بيازيد وخلفه السلطان سليم الاول واشتبك هذا بمحاربة الفرس وبعد ان تغلب عليهم مال الى مصر وحارب السلطان الغوري واستولى على سوريا ومصر وهكذا دانت اكثر الممالك الاسلامية الى ملوك آل عثمان وعظمت شوكتهم في البلاد وخافتهم أوروبا باسرها

ولما رأى شريف مكة المكرمة ابو التيم بن محمد ابو البركات ان المسلمين قد دانوا للملوك بني عثمان وان هؤلاء الابطال الصناديد والسادة الامجاد قد تولوا حماية الاسلام قدم مصر وكان السلطان سليم فيها وقدم له المخلفات الشريفة النبوية وتقدم المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس وتنازل له عن الخلافة وبايعه بها وهكذا انتقلت الخلافة الاسلامية من ايدي العباسيين الى ايدي العثمانيين وسار المتوكل على الله الى الاستانة فعاش فيها على الرحب والسعة وفي اواخر ايامه عاد الى مصر ومات فيها

هكذا انتقلت الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة المحمدية العظمى من ايدي العباسيين الذين دالت دولتهم وتضعضع سلطانهم الى ايدي العثمانيين العظام الذين كانوا قد ارهبوا اوروبا بل العالم باجمعه واصبح الفوز حليفهم والمجد اليفهم والسودد والجاه من انصارهم والاقدار مروجة لاوامرهم خادمة لافكارهم فاعتزت بهم الخلافة وعظمت بفضلهم الامامة وعاد بهم لهذا الدين سابق الفخار وتجدد للاسلام بصولتهم ما كان لهم من جلائل الآثار

وهكذا وفق الله المسلمين بالخلفاء العثمانيين فقاموا بأمر هذه الدولة خير قيام وعززوا شوكة المسلمين ونهضوا بالاسلام نهضة لم تكن لهم من قبل حيث ملكوا الشرق والغرب واصبحت ملوك أوروبا تخافهم وتخشى بأسهم وكلمة التوحيد أصبحت تتلألأ في مشارق الارض ومغاربها بسطوة الابطال العثمانيين الامجاد

وما زالت الخلافة العثمانية ايدها الله موضع فخار المسلمين ومرجع اعزاز الموحدين وقبلة المؤمنين وما زالوا خدام الحرمين المحترمين وحماة هذا الدين الى ابد الابدين

هذه هي الادوار التي تقلبت عليها الخلافة الاسلامية فكان خيرها بخير هذا الدين وكل شر حدث بربوعها كان بانحراف الناس عن محجة القرآن الشريف المظيم فاللهمّ اعد للاسلام نشأته الاولى واعد للمسلمين ذلك الفخار العظيم والمجد الاسنى ياصاحب الاسماء الحسنى انك على كل شيء قدير وبالاجابة جدير

# الخاتمة

هذا ماخطر لنا ذكره في هذا الجزء من كتابنا ونحن نمرّ به على التاريخ القديم والحديث مراً ونقلب صفحاته تقليباً وقد ظهر لنا ان المسلمين قد ساعدهم دينهم كثيراً على مدنيتهم وبفضل القرآن الشريف قد سادوا وشادوا واعتزت كلمتهم وعظم سؤددهم وهم الذين عمروا بفضل هذا الدين الحنيف المدن العامرة والمدارس الزاهرة وزها فيهم العلم وتلألأت انواره كما اتضح لنا جلياً ان ماأصاب المسلمين من التقهقر وضياع المجد والسلطان لم يكن من دينهم معاذ الله بل بتفرق كلمتهم وسيادة الجهل عليهم بفضل ماقام في ممالكهم من الحروب والقلاقل والمنازعات والخصومات الداخلية ولا ينكر علينا منصف ان هذه الفتن لم تحدث في المسلمين الا عند ما تركوا آداب قرآنهم وتغلب عليهم حبّ الذات والانغماس في الشهوات وترك العناية بالعلم والادب وابتعادهم عن الوحدة الدينية التي أمر الله بها في قرآنه الشريف وأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدة دينية يجب ان يكون فيها المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً

وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله سيرى القاري الكريم تفصيل مااجملنا عن اسباب تقهقر المسلمين وكان ذلك لتركهم الدين واتباعهم اهواءهم وسنبرهن فيه بصحيح البرهان ان النصارى وهم سكان اوروبا لم يترقوا مراقي المدنية الا عندما تخلصوا من قيود البابوات الدينية التي كانت مسيطرة على عقولهم وواقفة سداً منيعا بينهم وبين الارتقاء وكان ذلك بفضل زعيمهم لوثيروس الذي قام محتجاً على البابوات فتبعه الناس باحتجاجه ولذلك دعاهم الناس

باسم «بورتسطان» أي محتجين وتاريخهم هو تاريخ الاصلاح الاوربي . وفي هذا الجزء أيضاً سنظهر باجلى بيان كيف كان النصارى يعاملون النازلين في بلادهم من غير دينهم من مسلمين ويهود بالقسوة والاضطهاد ولم يقتصر ذلك على المسلمين واليهود بل طالما ذبحوا بعضهم بعضاً بالتشيمات المذهبية وآخر مذبحة لهم كانت مذبحة القديس برتلماوس التي حدثت في باريس فملأت شوارعها دماً ذكياً وفي الوقت نفسه سنبين كيف كان النصارى واليهود رافلين في ظلال المسلمين متنعمين في حكمهم آمنين مطمئنين على أرواحهم وأموالهم واعراضهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم الخ

وسنذكر في هذا الجزء في الاخير مايخطر لنا من أسباب الاصلاح الاسلامي دينياً وسياسياً وادبياً مما نرجو معه ان نتمكن من تشخيص الداء ووصف الدواء وفي هذا الجزء نشخص الجامعة الاسلامية بحقيقتها بحيث يرى فيها الاوربيون عكس مايتوهمون فلا يبقى مجال لتخوفهم من المسلمين لو هم اتحدوا اتحاداً وتضامنوا في سبيل الارتقاء بل بالعكس لو تمت هذه الجامعة على ماينشده العقلاء ويسعى اليه الفضلاء لكانت خير عضد للمدنية الحقيقية

والله المسئول ان يسدد خطواتنا في سبيل خدمة القرآن والاسلام سبحانه مجيب الدعوات والسلام . انتهى والحمد لله أولا وآخراً

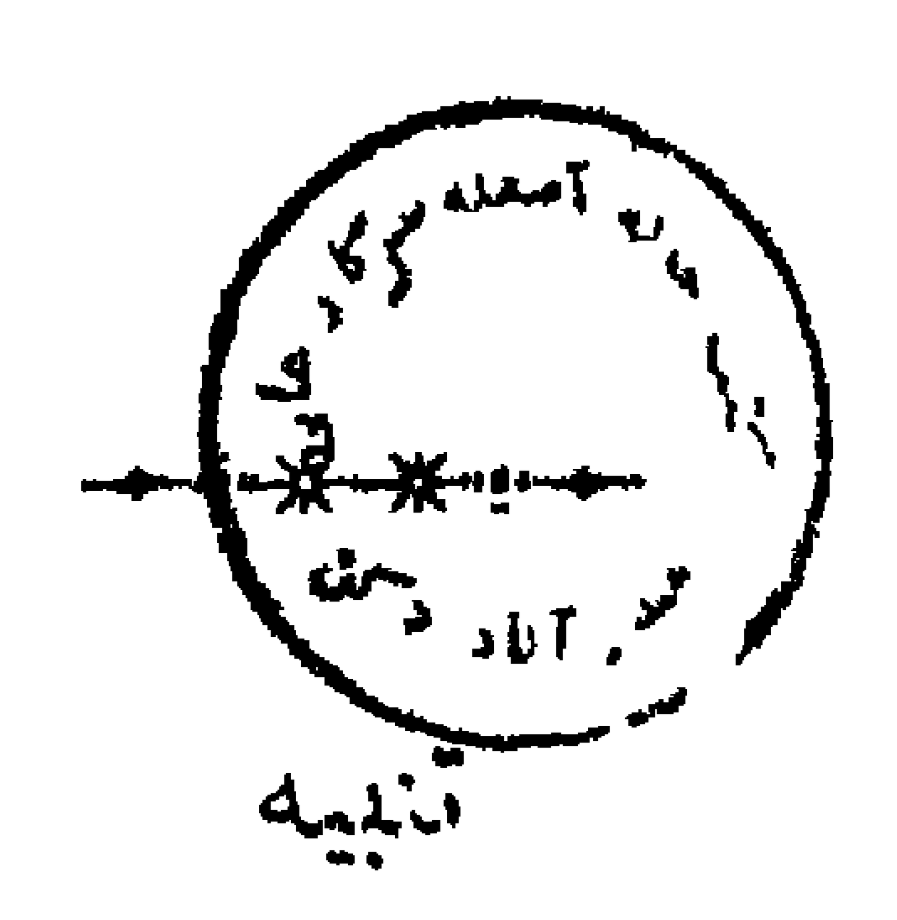
فهرست

الجزء الاول من كتاب

# خواطر في الاسلام

صفحه

صفحه



تنبيه

وقعت بعض اغلاط مطبعية طفيفة في هذا الكتاب وقد اهملنا اصلاحها طمعاً بذكاء القاريء اللبيب